لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ

قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ

وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

(لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ)

*البخارى1461 – عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﵁ يَقُولُ:كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ وَ كَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ(اسم بستان)وَ كَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ(عذب)قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: {لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} [آل عمران: 92] وَ إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَ إِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَ ذُخْرَهَا(أطمع و آمل من الله تعالى أن يدخر لي أجرها و ثوابها لأجده يوم القيامة)عِنْدَ اللَّهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ قَالَ:فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«بَخٍ(كلمة تقال عند الرضا و الإعجاب بالشيء)ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ(من الرواح و هو الرجوع أي يرجع نفعه إلى صاحبه) ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ وَ قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وَ إِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ» فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَ بَنِي عَمِّهِ

*هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات فقال:–

(لَن تَنَالُواْ)تدركوا و تبلغوا

(ٱلْبِرَّ)كل خير من أنواع الطاعات و أنواع المثوبات الموصل لصاحبه إلى الجنة

(حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ)من أموالكم النفيسة التى تحبها نفوسكم

فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته دل ذلـــــــك على:-

1-إيمانكم الصادق 2-و بـر قلوبكم و يقين تقواكم

*فيدخل في ذلك:-

1-إنفاق نفائس الأموال 2-و الإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه 3-و الإنفاق في حال الصحة

و دلـــــــت الآية :-

1-أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره 2-و أنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك

*و لما كان الإنفاق على أي وجه كان مثابا عليه العبد سواء كان قليلا أو كثيرا محبوبا للنفس أم لا و كان قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله(وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ)

فلا يضيق عليكم بل يثيبكم عليه على حسب :-

1-نيـــــــاتكم 2-و نفعـــــــه.

و هذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز فكفروا بعيسى و محمد ﷺ لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل و التحريم 92

*فمن تمام الإنصاف في المجادلة إلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني إسرائيل

◄ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

هذا عبد الله بن عمر تدبر قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1]؛ فكان إذا أعجبه شيءٌ من ماله يقربه إلى الله عز وجل، وكأنَّ عبيدَه قد عرفوا ذلك منه فربما لزم أحدهم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه، فيقال له: إنهم يخدعونك! فيقول: من خدعنا لله انخدعنا له![2] حلية الأولياء آل عمران: ٩٢

وكان له جارية يحبها كثيرًا فأعتقها وزوَّجها لمولاه نافع، وقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، واشترى مَرَّةً بعيرًا فأعجبه لما ركبه فقال: يا نافع أدخله في إبل الصدقة.

وأعطاه ابن جعفر في نافعٍ عشرة آلاف فقال: أوَ خيرًا من ذلك! هو حُرٌّ لوجه الله، واشترى مرةً غلامًا بأربعين ألفًا وأعتقه فقال الغلام: يا مولاي قد أعتقتني فَهَبْ لي شيئًا أعيش به؛ فأعطاه أربعين ألفًا.

واشترى مرة خمسة عبيد، فقام يصلي فقاموا خلفه يصلون فقال: لمن صليتم هذه الصلاة؟ فقالوا: لله، فقال: أنتم أحرار لمن صليتم له؛ فأعتقهم[3] البداية والنهاية

(كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ)

افتراء اليهود على يعقوب و تحريمه على نفسه93-95

*وَ لِهَذَا السِّيَاقِ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مُنَاسَبَتَان .

إِحْدَاهُمَا: أَنْ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَ تَرَكَهَا لِلَّهِ وَ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرِيعَتِهِمْ فَلَهُ مُنَاسَبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}

فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا وَ هُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِمَّا يحبُّه الْعَبْدُ وَ يَشْتَهِيهِ كَمَا قَالَ:-

(وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا)الإنسان: ٨(وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ)البقرة: ١٧٧—و هو يعقوب عليه السلام

(عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ)من غير تحريم من الله تعالى بل حرمه على نفسه لما أصابه عرق النسا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرمن أحب الأطعمة عليه فحرم فيما يذكرون:–

لحوم الإبل و ألبانها و تبعه بنوه على ذلك و كان ذلك قبل نزول التوراة

*أحمد 2471 -عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْيَهُودِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا:-
يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهَا لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ فَكَانَ فِيمَا سَأَلُوهُ أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ؟ قَالَ:
«فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عليه السلام مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ فَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الْإِبِلِ وَ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟»فَقَالُوا:-اللَّهُمَّ نَعَمْ
–ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالا لهم طيبا كما قال تعالى

(فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا) النساء: ١٦٠

الْمُنَاسَبَةُ الثَّانِيَةُ:-لَمَّا تَقَدَّمَ السِّيَاقُ فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى وَ اعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلِ فِي الْمَسِيحِ وَ تَبَيَّنَ زَيْف مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَ ظُهُورُ الْحَقِّ وَ الْيَقِينِ فِي أَمْرِ عِيسَى وَ أُمِّهِ وَ كَيْفَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَ مَشِيئَتِهِ وَ بَعَثَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى -شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ قَبَّحهم اللَّهُ وَ بَيَانِ أَنَّ النَّسْخ الَّذِي أَنْكَرُوا وُقُوعَهُ وَ جَوَازَهُ قَدْ وَقَعَ

*فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَاةِ:-

1-أَنَّ نُوحًا عليه السلام لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهَا
2-ثُمَّ بَعْدَ هَذَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ لُحْمانَ الْإِبِلِ وَ أَلْبَانَهَا فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي ذَلِكَ وَ جَاءَتِ التَّوْرَاةُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ وَ أَشْيَاءَ أُخَرَ زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ.
3-وَ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذِنَ لِآدَمَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ وَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ.
4-وَ كَانَ التَّسَرِّي عَلَى الزَّوْجَةِ مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ قَدْ فَعَلَهُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ فِي هَاجَرَ لَمَّا تسرَّى بِهَا عَلَى سَارَّةَ وَ قَدْ حُرِّمَ مِثْلُ هَذَا فِي التَّوْرَاةِ عَلَيْهِمْ.
5-وَ كَذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ شَائِعًا وَ قَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عليه السلام جَمَعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ثُمَّ حُرِّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ.

وَ هَذَا كُلُّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي التَّوْرَاةِ عِنْدَهُمْ فَهَذَا هُوَ النَّسْخُ بِعَيْنِهِ فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْمَسِيحِ عليه السلام

فِي إِحْلَالِهِ بَعْض مَا حَرَّمَ فِي التَّوْرَاةِ فَمَا بَالُهُمْ لَمْ يَتْبَعُوهُ؟ بَلْ كَذَّبُوهُ وَ خَالَفُوهُ؟

*وَ كَذَلِكَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺمِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ وَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ و مِلَّة أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَمَا بَالُهم لَا يُؤْمِنُونَ؟ وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزلَ التَّوْرَاةُ}

*و أمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة فاستمروا بعد هذا على الظلم و العناد

فلهذا قال تعالى(فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ)

فَمَنْ كَذَب عَلَى اللَّهِ و ادَّعى أَنَّهُ شَرَع لَهُمُ السَّبْتَ وَ التَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَاةِ دَائِمًا وَ أَنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا آخَرَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِالْبَرَاهِينِ و الحُجَج بَعْدَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاه مِنْ وُقُوعِ النُّسَخِ وَ ظُهُورِ مَا ذَكَرْنَاهُ (فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ)

–و أي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عنادا و تكبرا و تجبرا

*و هذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ و قيام الآيات البينات المتنوعات على صدقه و صدق من نبأه و أخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها فلهذا قال تعالى:–

(قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ)فيما أخبر به و حكم و هذا أمر من الله لرسوله و لمن يتبعه أن يقولوا بألسنتهم:–صدق الله معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها

*و من هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقا لله أعظمهم علما و يقينا بالأدلة التفصيلية السمعية و العقلية

(فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا)مائلا عن الشرك إلى التوحيد(وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ)

*ثـــــــم أمـــــــرهم :–

1–باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد

2–و ترك الشرك الذى هو مدار السعادة و بتركه حصول الشقاوة

*و فى هذا دليل على أن اليهود و غيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين

*اتَّبَعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍﷺفَإِنَّهُ الْحَقُّ الّذى لَا شَكَّ فِيهِ وَ لَا مِرْية وَ هِىَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلَ مِنْهَا وَ لَا أَبْيَنَ وَ لَا أَوْضَحَ وَ لَا أَتَمَّ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[الأَنْعَام:161]

وَ قَالَ تَعَالَى:{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النَّحْل:123] .

*و لما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد و ترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج و غيره فقال:

مكانة البيت الحرام

(إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ)من أسماء مكة على المشهور

*البخارى3366 - عن أَبِي ذَرٍّ ﵁قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِﷺ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ(أى للصلاة فيه)؟

قَالَ:«المَسْجِدُ الحَرَامُ»قَالَ:قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟قَالَ«المَسْجِدُ الأَقْصَى»(سمى بذلك لبعد المسافة بينه و بين الكعبة أو لبعده عن الأقذار و الخبائث فإنه مقدس مطهر و قيل لأنه لم يكن وراءه موضع عبادة) قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟قَالَ:

«أَرْبَعُونَ سَنَةً ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ بَعْدُ(أى بعد دخول وقت الصلاة)فَصَلِّهْ(أى فصل و الهاء هاء السكت)فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ»

(أى فعل الصلاة إذا حضر وقتها وفي أول الوقت)

*يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام و أنه أول بيت وضعه الله للناس :-

1-يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم

2-و تقال عثارهم

3-و يحصل لهم به من الطاعات و القربات ما ينالون به رضى ربهم و الفوز بثوابه و النجاة من عقابه

و لهذا قال:-(مُبَارَكًا)فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية و الدنيوية كما قال تعالى:-

(لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ)الحج: ٢٨

(وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ)و الهـــــدى نـــــوعان:-

1- هــــدى فى المعرفة 2-و هــــدى فى العمل فالهدى فى العمل ظاهر

*و هو ما جعل الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به

*و أما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البينات التى ذكر الله تعالى فى قوله

(فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ)أدلة واضحات و براهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية و المطالب العالية

كـــــالأدلة على:-

☼تـــــوحيده ☼و رحـــــمته ☼و حـــــكمته ☼و عـــــظمته ☼و جـــــلاله

☼و كـــــمال علمه ☼و ســـــعة جوده ☼و ما مَنَّ به على أوليائه و أنبيائه

فـــــمن الآيـــــات :-(مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ)

1-يحتمل أن المراد به المقام المعروف و هو الحجر الذى كان يقوم عليه الخليل لبنيان الكعبة لما ارتفع البنيان و كان ملصقا فى جدار الكعبة

فلما كان عمر ﷺوضعه في مكانه الموجود فيه الآن و الآية فيه قيل أثر قدمى إبراهيم قد أثرت في الصخرة و بقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة و هذا من خوارق العادات

*وَ قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ:-و مَوْطِئ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ ناعلِ

2-قيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه و تكريمه و تشريفه و احترامه

3-و يحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها

*فيكون على هذا جميع أجزاء الحج و مفرداته آيات بينـــــات:-

1-كالطواف 2-و السعى و مواضعها 3-و الوقوف بعرفة و مزدلفة 4-و الرمى و سائر الشعائر

و الآيـــــة فى ذلك:-

1-ما جعله الله فى القلوب من تعظيمها و احترامها 2-و بذل نفائس النفوس و الأموال فى الوصول إليها

3-و تحمل كل مشقة لأجلها 4-و ما فى ضمنها من الأسرار البديعة و المعانى الرفيعة

5-و ما فى أفعالها من الحكم و المصالح التى يعجز الخلق عن إحصاء بعضها

و من الآيـــــــات البينـــــــات:-

1-فيها أن من دخله كان آمنا [شـــــــرعا و قـــــــدرا]

*(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ)العنكبوت: ٦٧

-فالشـــــــرع:-

*قد أمر الله رسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه و تأمين من دخله و أن لا يهاج حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها و أشجارها و نباتها

*البخارى112 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:-أَنَّ خُزَاعَةَ(اسم قبيلة و بنو ليث قبيلة أيضا)قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ بَنِي لَيْثٍ-عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ - بِقَتِيلٍ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ(المركب من الإبل)فَخَطَبَ فَقَالَ:-
«إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ(منع) عَنْ مَكَّةَ القَتْلَ أَوِ الفِيلَ»قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ كَذَا قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ وَ اجْعَلُوهُ عَلَى الشَّكِّ الفِيلَ أَوِ القَتْلَ وَ غَيْرُهُ يَقُولُ الفِيلَ-وَ سَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺوَ المُؤْمِنِينَ أَلاَ وَ إِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي أَلاَ وَ إِنَّهَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ
أَلاَ وَ إِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ لاَ يُخْتَلَى(يقطع)شَوْكُهَا وَ لاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا وَ لاَ تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا
(ما سقط فيها من المتلكات المنقولة)إِلَّا لِمُنْشِدٍ(لمعرف على الدوام) فَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ(أهله و وليه) بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: -
1-إِمَّا أَنْ يُعْقَلَ(يعطى العقل و هو الدية) 2-و إِمَّا أَنْ يُقَادَ(من القود و هو قتل القاتل قصاصا) أَهْلُ القَتِيلِ ".
فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ فَقَالَ: اكْتُبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ: «اكْتُبُوا لِأَبِي فُلاَنٍ»
فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ(هو العباس بن عبد المطلب):-إِلَّا الإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّا نَجْعَلُهُ فِي بُيُوتِنَا وَ قُبُورِنَا؟
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِلَّا الإِذْخِرَ إِلَّا الإِذْخِرَ»(نبت طيب الرائحة معروف فى أرض الحجاز)
قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ:- يُقَالُ: يُقَادُ بِالقَافِ فَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَيُّ شَيْءٍ كَتَبَ لَهُ؟ قَالَ: كَتَبَ لَهُ هَذِهِ الخُطْبَةَ

*و قد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن و لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه

-و أما تأمينها قدرا :-

فلأن الله تعالى بقضائه و قدره وضع فى النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين بربهم احترامه حتى إن الواحد منهم مع شدة حميتهم و نعرتهم و عدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه فى الحرم فلا يهيجه

*مسلم 1356عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺيَقُولُ:-«لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ»

*و من جعله حرما أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة كما فعل بأصحاب الفيل و غيرهم

*و قد رأيت لابن القيم هاهنا كلاما حسنا أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه قال فائدة:-

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

« حج البيت » مبتدأ و خبره فى أحد المجرورين قبله و الذى يقتضيه المعنى أن يكون فى قوله:-
« على الناس »لأنه وجوب و الوجوب يقتضي « على »
*و يجوز أن يكون في قوله: « ولله » لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق و يرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة و موضعها و تقديمه في هذا الباب في نية التأخير فكان الأحسن أن يكون « و لله على الناس » .
و يرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: « حج البيت على الناس » أكثر استعمالا فى باب الوجوب من أن يقال:-
« حج البيت لله »أى: حق واجب لله فتأمله.
*و على هذا ففى تقديم المجرور الأول و ليس بخبر فائدتان:-
الفائدة الأولى:-أنه اسم للموجب للحج فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب
فتضمنت الآية ثـــــــــلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع:-
أحدها:الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره
و الثانى:مؤدى الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس
و الثالث:النسبة و الحق المتعلق به إيجابا و بهم وجوبا و أداءو هو الحج.
و الفائدة الثانية:أن الاسم المجرور من حيث كان اسما لله سبحانه وجب الاهتمام بتقديمه تعظيما لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه و تخويفا من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.
و أما قوله: « مَنْ » فهي بدل و قد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر
كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا و هذا القول يضعف من وجوه
منها: أن الحج فرض عين و لو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم لأن المعنى يؤل إلى:-ولله على الناس حج البيت مستطيعهم فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجبا على غير المستطيعين و ليس الأمر كذلك بل الحج فرض عين على كل أحد حج المستطيعون أو قعدوا
و لكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذه به و لا يطالبه بأدائه
فإذا حج سقط الفرض عن نفسه و ليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين
و إذا أردت زيادة إيضاح فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم و إذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع كان الوجوب متعلقا بالجميع و عذر العاجز بعجزه
*ففى نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال:-ولله حج البيت على المستطيعين هذه النكتة البديعة فتأملها.
الوجه الثاني:-
أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول و لا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول فلو كان من هو الفاعل لأضيف المصدر إليه

فكان يقال: « و لله على الناس حج مَنْ استطاع » و حمله على باب « يعجبني ضرب زيد عمرا »

و فيما يفصل فيه بين المصدر و فاعله المضاف إليه بالمفعول و الظرف حمل على المكتوب المرجوح

و هي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) فلا يصار إليه.

و إذا ثبت أن « من » بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى « الناس » كأنه قيل:–

من استطاع منهم و حذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن

و حسنه هاهنا أمور منها:–

أن « من » واقعة على من لا يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به

و منها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول و لو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد

و مثال ذلك إذا قلت:–

رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق منهم كان قبيحا لأن الذاهب إلى السوق أعم من الإخوة

و كذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن و جمل يريد منها

و لم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

و باب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه

فإذا كان أعم و أضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم و بقى الخصوص و مما حسن حذف المضاف فى هذه أيضا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة و الموصول.

–و أما المجرور من قوله « لله » فيحتمل وجهين:–

أحدهما:–أن يكون فى موضع من سبيل كأنه نعت نكرة قدم عليها لأنه لو تأخر لكان فى موضع النعت لسبيل

و الثاني: أن يكون متعلقا بسبيل فإن قلت:–كيف يتعلق به و ليس فيه معنى الفعل؟

قيل: السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصل إلى البيت من قوت و زاد ونحوهما كان فيه رائحة الفعل

و لم يقصد به السبيل الذي هو الطريق فصلح تعلق المجرور به و اقتضى حسن النظم و إعجاز اللفظ تقديم المجرور و إن كان موضعه التأخير لأنه ضمير يعود على البيت و البيت هو المقصود به الاعتناء

و هم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم و ببيانه أعني هذا تقرير السهيلي و هذا بعيد جدا بل الصواب في متعلق الجار و المجرور وجه آخر أحسن من هذين و لا يليق بالآية سواه و هو الوجوب المفهوم من قوله

« على الناس »يجب لله على الناس الحج فهو حق واجب لله

و أما تعليقه بالسبيل و جعله حالا منها ففى غاية البعد فتأمله و لا يكاد يخطر بالبال من الآية

و هذا كما تقول: لله عليك الصلاة و الزكاة و الصيام.

*و من فوائد الآية و أسرارها:–

1–أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه و يحرمه يذكره بلفظ الأمر و النهي و هو الأكثر و بلفظ الإيجاب و الكتابة و التحريم نحو:–(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)

و في الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه

أحدها أنه قدم اسمه تعالى و أدخل عليه لام الاستحقاق و الاختصاص

ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبدل منه أهل الاستطاعة ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذانا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت من قوت أو مال فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلا ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال (و من كفر)

أي:لعدم التزامه هذا الواجب و تركه ثم عظم الشأن و أكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه و الله تعالى هو الغنى الحميد

و لا حاجة به إلى حج أحدو إنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له و سخطه عليه و إعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد و أبلغه

ثم أكد ذلك بذكر اسم « العالمين » عموما و لم يقل: فإن الله غني عنه

لأنه إذا كان غنيا عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذى أوجبه عليه

ثم أكد هذا المعنى بأداة « إن » الدالة على التأكيد فهذه عشرة أوجه تقتضى تأكد هذا الفرض العظيم.

*و تأمل سر البدل في الآية المقتضى لذكر الإسناد مرتين مرة:–

1–بإسناده إلى عموم الناس

2–و مرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين

و هذا من فوائد البدل تقوية المعنى و تأكيده بتكرر الإسناد و لهذا كان فى نية تكرار العامل و إعادته.

*ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام و التفصيل بعد الإجمال و كيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين و خلتين اعتناء به و تأكيد لشأنه

ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت و عظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده و حجه و ان لم يطلب ذلك منها فقال: (إن أول بيت) إلخ فوصفه بخمس صفات:–

أحدها:–كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض

الثانى:–أنه مبارك و البركة كثرة الخير و دوامه و ليس في بيوت العالم أبرك منه و لا أكثر خيرا و لا أدوم و لا أنفع للخلائق

الثالث:–أنه هدى و وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه نفس الهدى

الرابع:–ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية

الخامس:–الأمن الحاصل لداخله و في وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه و إن شطت بالزائرين الديار و تناءت بهم الأقطار

ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات و هذا يدل على الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم و التنويه بذكره و التعظيم لشأنه و الرفعة من قدره و لو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله :–

(وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ) لكفى بهذه الإضافة فضلا و شرفا

و هذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه و سلبت نفوسهم حباله و شوقا إلى رؤيته

فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه و لا يقضون منه وطرا أبدا كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا و إليه اشتياقا

فلا الوصال يشفيهم و لا البعاد يسليهم كما قيل:–

أطوف به و النفس بعد مشوقة إليه... و هل بعد الطواف تداني

و ألثم منه الركن أطلب برد... ما بقلبي من شوق و من هيمان

فو الله ما ازداد إلا صبابة ...و لا القلب إلا كثرة الخفقان

فيا جنة المأوى و يا غاية المنى... و يا منيتي من دون كل أمان

أبت غلبات الشوق إلا تقربا ....إليك فما لي بالبعاد يدان

و ما كان صدى عنك صد ملالة ...و لي شاهد من مقلتي ولسان

دعوت اصطباري عنك بعدك و... البكا فلبى البكا و الصبر عنك عصاني

و قد زعموا أن المحب إذا نأى... سيبلى هواه بعد طول زمان

ولو كان هذا الزعم حقا لكان ذا... دواء الهوى في الناس كل زمان

بلى إنه يبلى و الهوى على... حاله لم يبله الملوان

و هذا محب قاده الشوق ...و الهوى بغير زمام قائد و عنان

أتاك على بعد المزار و لو ونت... مطيته جاءت به القدمان

انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

(وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ)و ه ى أبلغ صيغ الإيجاب

و استثنى العاجزين عن حجه و اعتماره بسبب:-

1- مــــرض

2-أو خوف قلة نفقة للركوب و الإنفاق على النفس و الأهل أيام السفر.

*مسلم 1337-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ:-

«أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا»فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ" لَوْ قُلْتُ:-نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ "

ثُمَّ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَ اخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»

(وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ)فإنه خبر منه تعالى بأن من كفر بالله و رسوله و حج بيته بعد ما ذكر من الآيات و الدلائل الواضحات فإنه لا يضر إلا نفسه أما الله تعالى فلا يضره شيء و كيف و هو القاهر فوق عباده و الغني عنهم أجمعين.

(قُلۡ) أيها الرسول(يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ)من اليهود و النصارى(لِمَ تَكۡفُرُونَ)تجحدون

(بِـَٔايَٰتِ)حجج(ٱللَّهِ)

التي دلَّتْ على أن دين الله هو الإسلام و تنكرون ما في كتبهم من دلائل وبراهين على ذلك وأنتم تعلمون؟

(وَٱللَّهُ شَهِيدٌ)على صنيعكم(عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ)و في ذلك تهديد و وعيد لهم.

يوبخ تعالى أهل الكتاب من اليهود و النصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله التي جعلها رحمة لعباده يهتدون بها إليه و يستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة

(قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ)تمنعون(عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ)من يريد الدخول في الاسلام

(تَبۡغُونَهَا)تطلبون له(عِوَجًا)زيغًا و ميلا عن القصد و الاستقامة

-فهؤلاء الكفرة جمعـــــــوا بين:-

1-الكفـــر بها 2-و صد من آمن بالله عنها 3-و تحـريفها و تعويجها عما جعلت له

(وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ)و هم شاهدون بذلك عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة

(ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ) النحل: ٨٨

-فلهذا توعدهم هنا بقوله:-(وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ)99

*بل محيط بأعمالكم و نياتكم و مكركم السيء فمجازيكم عليه أشر الجزاء لما توعدهم و وبخهم عطف برحمته و جوده و إحسانه و حذر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون فقال:

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ)و ذلك:-

1-لحسدهم 2-و بغيهم عليكم 3-و شدة حرصهم على ردكم عن دينكم كما قال تعالى:

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ) البقرة: ١٠٩ 100

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ
فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾
وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

*ثم ذكر تعالى السبب الأعظم و الموجب الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم و عدم تزلزلهم عن إيقانهم و أن ذلك من أبعد الأشياء فقال:-

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ)بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت

و هي الآيات البينات التي توجب:-

1-القطـــــــع بموجبها

2-و الجـــــزم بمقتضاها

3-و عـــــدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه

*خصوصا و المبين لها أفضل الخلق و أعلمهم و أفصحهم و أنصحهم و أرأفهم بالمؤمنين الحريص على هداية الخلق و إرشادهم بكل طريق يقدر عليه فصلوات الله وسلامه عليه

*فلقد نصح و بلغ البلاغ المبين فلم يبق في نفوس القائلين مقالا و لم يترك لجائل في طلب الخير مجالا

(وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ)فتوكل عليه و امتنع بقوته و رحمته عن كل شر و استعان به على كل خير

(فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)موصل له إلى غاية المرغوب لأنه جمع بين اتباع الرسول في:-

أقـــــواله و أفعـــــاله و أحـــــواله و بين الاعتصـــــام بالله101

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ)هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه

(وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)

و أن يستمروا على ذلك و يثبتوا عليه و يستقيموا إلى الممات

*فإن من عاش على شيء مات عليه فمن كان في حال صحته و نشاطه و إمكانه مداوما لتقوى ربه و طاعته منيبا إليه على الدوام ثبته الله عند موته و رزقه حسن الخاتمة

*و تقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود:-

1-و هو أن يُطاع فلا يُعصى

2-و يُذكر فلا ينسى

3-و يشكر فلا يكفر

*و هذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى و أما ما يجب على العبد منها فكما قال تعالى:-

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) التغابن: ١٦

و تفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب و الجوارح كثيرة جدا يجمـــــــعها :-

1-فعل ما أمر الله به

2-و ترك كل ما نهى الله عنه

*مسلم- (1844)عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ:-

دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَ النَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ:-كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ وَ مِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ(هو من المناضلة و هى المراماة بالنشاب)وَ مِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ(هى الدواب التي ترعى و تبيت مكانها)

إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ ﷺ:-الصَّلَاةَ جَامِعَةً(هى بنصب الصلاة على الإغراء و نصب جامعة على الحال)

فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ:-

إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَ يُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَ إِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا وَ سَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَ أُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَ تَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا(هذه اللفظة رويت على أوجه أحدها وهو الذى نقله القاضى عن جمهور الرواة يرقق أى:-يصير بعضها رقيقا أي خفيفا لعظم ما بعده فالثانى يجعل الأول رقيقا و قيل معناه يشبه بعضه بعضا وقيل يدور بعضها في بعض ويذهب ويجىء وقيل معناه يسوق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها والثانى فيرقق والثالث فيدقق أى يدفع ويصب والدفق هو الصب)وَ تَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ:-

هَذِهِ مُهْلِكَتِي ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَ تَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: -

هَذِهِ هَذِهِ فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَ هُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ

(هذا من جوامع كلمه ﷺ وبديع حكمه و هذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها و إن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه)

وَ مَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَ ثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخَرِ " فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: أَنْشُدُكَ اللهَ آنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

فَأَهْوَى إِلَى أُذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَ قَالَ: «سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَ وَعَاهُ قَلْبِي»

فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ

وَ نَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَ اللهُ يَقُولُ:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)[النساء: 29] قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ:-

«أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللهِ وَ اعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»

(وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ)

*مسلم (1715) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَ يَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا فَيَرْضَى لَكُمْ

1-أَنْ تَعْبُدُوهُ

2-وَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

3-وَ أَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا

*وَ يَكْــــــرَهُ لَكُمْ:-

1-قِيلَ وَ قَالَ

2-وَ كَثْرَةَ السُّؤَالِ

3-وَ إِضَاعَةِ الْمَالِ

–ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى و هو:–

1–الاجتمـــــــاع

2–و الاعتصـــــام بدين الله

و كون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين فإن في اجتماع المسلمين على دينهم و ائتلاف قلوبهم:–

1–يصلـــــح دينهم

2–و تصلـــح دنياهم

3–و بالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور

4–و يحصل لهم من المصالح التى تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها من التعاون على البر و التقوى

*كما أن بالافتراق و التعادى :–

1–يختل نظامهم

2–و تنقطع روابطهم

3–و يصير كل واحد يعمل و يسعى في شهوة نفسه و لو أدى إلى الضرر العام

*ثم ذكرهم تعالى نعمته و أمرهم بذكرها فقال:–(وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً)

*هَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الأوْس و الخَزْرَج فَإِنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ حُروبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَ عَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ وَ ضَغَائِنُ و إِحَنٌ وذُحُول طَالَ بِسَبَبِهَا قِتَالُهُمْ وَ الْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ

*فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَدَخَلَ فِيهِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ صَارُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ اللَّهِ مُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:(وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ) الأنفال

*وَ كَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرة مِنَ النَّارِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ فَأَبْعَدَهُمْ اللَّهُ مِنْهَا:- أَنْ هَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ.

-يقتل بعضكم بعضا و يأخذ بعضكم مال بعض حتى إن القبيلة يعادى بعضهم بعضا و أهل البلد الواحد يقع بينهم التعادى و الاقتتال و كانوا فى شر عظيم و هذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ

(فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا)

*فلما بعثه الله و آمنوا به و اجتمعوا على الإسلام و تآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد من:-

1- تـــــآلف قلوبهم

2-و مـــــــوالاة بعضهم لبعض

و لهذا قال: (وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ)قد استحقيتم النار و لم يبق بينكم و بينها إلا أن تموتوا فتدخلوها

(فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ)بما مَنَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ)يوضح و يفسر

(ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ)لكم الحق من الباطل و الهدى من الضلال

(لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ)بمعرفة الحق و العمل به

و فى هذه الآية ما يـــــــدل:-

1-أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم و ألسنتهم ليزدادوا شكرا له و محبة و ليزيدهم من فضله و إحسانه

2-و إن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام و اتباع الرسول ﷺو اجتماع كلمة المسلمين و عدم تفرقها103

(وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ)أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان و الاعتصام بحبله

(أُمَّةٞ)جماعة(يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ)اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله و يبعد من سخطه

(وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ)و هو ما عرف بالعقل و الشرع حسنه

(وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ)و هو ما عرف بالشرع و العقل قبحه

*و هذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله و إرشاد الخلق إلى دينه

*و يدخل فى ذلك :-

1-العلمـــــاء المعلمون للدين

2-و الوعـــــاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام و يدعون المنحرفين إلى الاستقامة

3-و المجاهدون في سبيل الله

4-و المتصدون لتفقد أحوال الناس و إلزامهم بالشرع :-

كالصلوات الخمس و الزكاة و الصوم و الحج و غير ذلك من شرائع الإسلام

5-و كتفقد المكاييل و الموازين و تفقد أهل الأسواق و منعهم من الغش و المعاملات الباطلة

*و كل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله (ولتكن منكم أمة)

إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة

*ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمرٌ به و بما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به

1-كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء و عز الإسلام

2-و تعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها و مقاصدها و بناء المدارس للإرشاد و العلم

و مساعدة النواب و معاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس:-

بالقول و الفعل و المال و غير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه

و هذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هم خواص المؤمنين

*مسلم (49) عن أَبِي سَعِيدٍ ﷺ:- قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:-

«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَ ذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ».

و لهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾الفائزون بالمطلوب الناجون من المرهوب104

*ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم و اختلافهم فقال:-

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾و من العجائب أن اختلافهم

*أبي داود 4597 -عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ﷺأَنَّهُ قَامَ فِينَا فَقَالَ: أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِينَا فَقَالَ:-

" أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَ سَبْعِينَ مِلَّةً

وَ إِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَ سَبْعِينَ:-ثِنْتَانِ وَ سَبْعُونَ فِي النَّارِ وَ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَ هِيَ الْجَمَاعَةُ

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾الموجبة لعدم التفرق و الاختلاف فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين

فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله فاستحقوا العقاب البليغ

و لهذا قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾105

*يخبر تعالى عن حال يوم القيامة و ما فيه من آثار الجزاء بالعدل و الفضل و يتضمن ذلك الترغيب و الترهيب الموجب للخوف و الرجاء فقال:-

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾أهل السعادة و الخير أهل الائتلاف و الاعتصام بحبل الله

*و أولئك ابيضت وجوههم لما فى قلوبهم من:-البهجة و السرور و النعيم و الحبور

الذى ظهرت آثاره على وجوههم كما قال تعالى:-(وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا) الإنسان: ١١

(وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ)أهل الشقاوة و الشر

1-أهل الفرقة و الاختلاف

2-و أهل البدعة

*هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من:-الخزى و الهوان و الذلة و الفضيحة

(نَضۡرَةٗ)فى وجوههم (وَسُرُورٗا)فى قلوبهم

و قال تعالى:(وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ) يونس: ٢٧

(فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ)فيقال لهم على وجه التوبيخ و التقريع: -

(أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ)هم المنافقون

كيف آثرتم الكفر و الضلال على الإيمان و الهدى؟و كيف تركتم سبيل الرشاد و سلكتم طريق الغي؟

(فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ)فليس يليق بكم إلا النار و لا تستحقون إلا الخزى و الفضيحة و العا106

(وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ)

فيهنئون أكمل تهنئة و يبشرون أعظم بشارة و ذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات و رضى ربهم و رحمته

(فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)و إذا كانوا خالدين في الرحمة فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى

فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم و العيش السليم فى جوار أرحم الراحمين107

*لما بين الله لرسوله ﷺالأحكام الأمرية و الأحكام الجزائية قال:-

(تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا)نقصها

(عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ)نكشف ما الأمر عليه فى الدنيا و الاخرة

*لأن أوامـــــره و نـــــــواهيه مشتملة على:-

1-الحكمة 2-و الرحمة 3-و ثوابها و عقابها

*كذلك ((أى الحق))مشتمل على :-

1-الحكمة 2-و الرحمة 3-و العدل الخالى من الظلم

و لهذا قال: (وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ)

نفى إرادته ظلمهم فضلا عن كونه يفعل ذلك:-

فلا ينقص أحدا شيئا من حسناته 2–و لا يزيد فى ظلم الظالمين بل يجازيهم بأعمالهم فقط108

ثم قال تعالى:

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ
بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ
مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ
ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ
مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ
وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾
وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

(وَلِلَّهِ مَا)هو المالك لما (فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ)الذى خلقهم و رزقهم و يتصرف فيهم بقدره و قضائه و في شرعه و أمره

(وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ)إليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسنها و سيئها109

(كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ)أظهرت(لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ)

*الصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عامةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ كُلُّ قَرْنٍ بِحَسْبِهِ و خَيْرُ قُرُونِهِمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
*البخارى4557-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ قَالَ:-
«خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ (أسرى مقيدين) فِي السَّلاَسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الإِسْلاَمِ
(يكون أسركم لهم سبب إسلامهم و تحصيل سعادة الدنيا و الآخرة لهم)»

*البخارى3650 عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
" خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قَالَ عِمْرَانُ فَلاَ أَدْرِى: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَ لاَ يُسْتَشْهَدُونَ وَ يَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ وَ يَنْذُرُونَ وَ لاَ يَفُونَ وَ يَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ "

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا)البقرة: ١٤٣-أى خيارا(لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ)البقرة: ١٤٣

*الترمذى 3001 -عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 110]قَالَ:«أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا و أَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ»
*وَ إِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُ أشرفُ خَلْقِ اللَّهِ أَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ وَ بَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرْعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ يُعْطِهِ نَبِيًّا قَبْلَهُ وَ لَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ.

فَالْعَمَلُ عَلَى مِنْهَاجِهِ وَ سَبِيلِهِ:- يَقُومُ القليلُ مِنْهُ مَا لَا يَقُومُ العملُ الكثيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ

*و من الاحاديث الدالة على فضل هذه الامة و شرفها و كرامتها على الله و أنها خير الامم في الدنيا و الاخرة:-

*البخارى6528 - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ:-كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قُبَّةٍ فَقَالَ:-

«أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ: «أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ:«أَتَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ(نصف)أَهْلِ الجَنَّةِ» قُلْنَا: نَعَمْ قَالَ:-

«وَ الَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصفَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَ ذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لاَ يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ وَ مَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ(بيان لقلة المسلمين بالنسبة لغيرهم)فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ»(شطر). (كالشعرة. .)]

*البخارى3486 -عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-

«نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بَيْدَ كُلِّ أُمَّةٍ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَ أُوتِينَا مِنْ بَعْدِهِمْ فَهَذَا اليَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَغَدًا لِلْيَهُودِ وَ بَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»

*يمدح تعالى هذه الأمة و يخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس و ذلـــــــك :-

1-بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به

2-و بتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف و النهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله

3-و جهـــــــادهم على ذلك

4-و بذل المستطاع فى ردهم عن ضلالهم و غيهم و عصيانهم

*فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس لما كانت الآية السابقة و هى قوله:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

أمرا منه تعالى لهذه الأمة و الأمر قد يمتثله المأمور و يقوم به و قد لا يقوم به

*أخبـــــــر فى هذه الآيـــــــة:-

1-أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به

2-و امتثلت أمر ربها

3-و استحقت الفضل على سائر الأمم

(وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم)فى هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان

(مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ)لكن لم يؤمن منهم إلا قليل

(وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ)الخارجون عن طاعة الله المعادون لأولياء الله بأنواع العداوة110

*لكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم فى نحورهم فليس على المؤمنين منهم ضرر فى أديانهم و لا أبدانهم

(لَن يَضُرُّوكُمْ)و إنما غاية ما يصلون إليه(إِلَّآ أَذًى)الكلام التى لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادى

أحوال أهل الكتاب و جزاء الكافرين 111-120

(وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ)

*فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فرارا ثم تستمر هزيمتهم و يدوم ذلهم و لا هم ينصرون فى وقت من الأوقات
*وَ هَكَذَا وَقَعَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْبَرَ أَذَلَّهُمُ اللَّهُ و أرْغم آنَافَهُمْ وَ كَذَلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ :
[بَنِى قَيْنُقَاع وَ بَنِى النَّضِير وَ بَنِى قُرَيْظَة]كُلُّهُمْ أَذَلَّهُمْ اللهُ وَ كَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ كَسَرهم الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ و سَلَبوهم مُلْك الشَّامِ111

و لهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم:-

(ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ)أذلاء محتقرون فى بواطنهم

(أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ)وُجِدوا

(إِلَّا بِحَبۡلٖ)بعهد-بِذِمَّةٍ مِنَ اللهِ وَ هُوَ عَقْد الذِّمَّةِ لَهُمْ و ضَرْب الْجِزْيَةِ عَلَيْهِمْ وَ إِلْزَامُهُمْ أَحْكَامَ الْمِلَّةِ

(وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ)أَىْ: أَمَانٌ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ كَمَا فِي الْمُهَادَن و المعاهَد وَ الْأَسِيرِ إِذَا أَمَّنَه وَاحِد مِنَ الْمُسْلِمِينَ

و قد (وَبَآءُو)رجعوا مع ذلك بغضب من الله مستحقين له

(وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ)على ظواهرهم فلا يستقرون و لا يطمئنون
فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين و عهدهم تؤخذ منهم الجزية و يستذلون أو تحت أحكام النصارى
-فلا ترى اليهودىَّ إلا و عليه الخوف و الرعب من أهل الإيمان

(بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ)و هذا أعظم العقوبات و السبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله:-

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ)
التى أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين و الإيمان فكفروا بها بغيا و عنادا

(وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ)يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة و هو القتل
*فهل بعد هذه الجراءة و الجناية شيء أعظم منها

(ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ)

و ذلك كله بسبب عصيانهم و اعتدائهم فهو الذى جرأهم على الكفر بالله و قتل أنبياء الله112 ثم قال تعالى:

(لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:أحمد 3760 - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ﷛ قَالَ:-
أَخَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺصَلاةَ الْعِشَاءِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلاةَ قَالَ:-
«أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ»
قَالَ:وَ أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ:(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)حَتَّى بَلَغَ:(وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ)

*هذا و قد ورد للآية سبب آخر :-

ففي مجمع الزوائد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:-

لما أسلم عبد الله بن سلام و ثعلبة بن سعية و أسد بن عبيد و من أسلم من يهود

فآمنوا وصدقوا و رغبوا فى الإسلام قالت أحبار يهود أهل الكفر:-

ما آمن بمحمد و تبعه إلا شرارنا و لو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم

فأنزل الله عز وجل في ذلك من قوله:(لَيْسُوا سَوَاءً} إلى قوله تعالى (مِنَ الصَّالِحِينَ} رواه الطبرانى ورجاله ثقات.

*و اختار الإمام أبو جعفر بن جرير:-الأول حيث قال بعد ذكره جملة من الأقوال غير أن الأولى بتأويل الآية قول من قال عنى بذلك - تلاوة القرآن في صلاة العشاء لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب فوصف الله أمة محمد ﷺبأنهم يصلونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله و رسوله.

و أقول لا مانع من نزول الآية فى الجميع أو أنه تعدد سبب نزولها والله أعلم.

*لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب و بين أفعالهم و عقوباتهم بين هاهنا الأمة المستقيمة و بين أفعالها و ثوابها فأخبر أنهم لا يستوون عنده بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه

*فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم و أما هؤلاء المؤمنون فقال تعالى:-

منهم (أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ)مستقيمة على دين الله قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات و من ذلك قيامها بالصلاة

(يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ)ساعات (ٱلَّيْلِ) جمع إنى و إنى.

-و هـــــذا بيـــــان:-

1-لصلاتهم في أوقات الليل 2-و طول تهجدهم 3-و تلاوتهم لكتاب ربهم

4-و إيثارهم الخضوع و الركوع و السجود له.

(وَهُمْ يَسْجُدُونَ)يصلون113

(يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ)

كإيمان المؤمنين إيمانا يوجب لهم الإيمان بكل نبى أرسله و كل كتاب أنزله الله

*و خص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقى باليوم الآخر يحث المؤمن به على:-

1-ما يقر به إلى الله

2-و يثاب عليه فى ذلك اليوم

3-و ترك كل ما يعاقب عليه فى ذلك اليوم

(وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ)

*فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان و لوازمه و تكميل غيرهم بأمرهم بكل خير و نهيهم عن كل شر و من ذلك حثهم أهل دينهم و غيرهم على الإيمان بمحمد ﷺثم وصفهم بالهمم العالية

(وَيُسَٰرِعُونَ)يبادرون

(فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ)فينتهزون الفرصة فيها و يفعلونها فى أول وقت إمكانها

و ذلك من شدة رغبتهم فى الخير و معرفتهم بفوائده و حسن عوائده فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة و الأفعال الجليلة

(وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ)الذين يدخلهم الله فى رحمته و يتغمدهم بغفرانه و ينيلهم من فضله و إحسانه

*كقوله(وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ) آل عمران: ١٩٩ 114

(وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ)قليلا كان أو كثيرا

(فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ)لن يحرموه و يفوتوا أجره بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب

و لكن الأعمال ثوابها تَبَعٌ لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان و التقوى

فلهذا قال (وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ)كما قال تعالى: (إنما يتقبل الله من المتقين)115

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ
﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ
فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ
بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ
وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ
كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ)تدفع(عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ)عذاب(ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ)

و لا تجدي عليهم شيئا من ثواب الله كما قال تعالى:-

(وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ)سبأ: ٣٧

بل تكون أمـــــوالهم و أولادهـــــم :-

1-زادا لهم إلى النـــار

2-و حجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم تقتضى منهم شكرها و يعاقبون على عدم القيام بها و على كفرها

و لهذا قال: (وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ) 116

(مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا)

ثم ضرب مثلا لما ينفقه الكفار من أموالهم التى:-

1- يصدون بها عن سبيل الله 2-و يستعينون بها على إطفاء نور الله بأنها تبطل و تضمحل

(كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ)برد شديد محرق-جَليد فَإِنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ سِيَّمَا الْجَلِيدُ يَحْرِقُ الزُّرُوعَ وَ الثِّمَارَ-نَارٌ

(أَصَابَتۡ حَرۡثَ)زرع(قَوۡمٖ)يُرجى نتيجته و يُؤمل إدراك ريعه

(فَأَهۡلَكَتۡهُۚ)فأهلكت زرعه كَمَا يُحْرَقُ الشَّيْءُ بِالنَّارِ و لم يحصل له إلا :-التعب و العناء و زيادة الأسف

*أيْ: أَحْرَقَتْهُ يَعْنِي بِذَلِكَ السَّفْعة إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرْث قَدْ آنَ جِدَادُه أَوْ حَصَاده فدمَّرَتْه و أعدَمَتْ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ فَذَهَبَتْ بِهِ وَ أَفْسَدَتْهُ فعدمه صَاحِبُهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ.
فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمْحَقُ اللَّهُ ثواب أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَ ثَمَرَتَهَا كَمَا أَذْهَبَ ثمرة هَذَا الْحَرْث بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ.
وَ كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ بَنَوْهَا عَلَى غَيْرِ أَصْل وَ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ

–فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم:(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ) الأنفال: ٣٦

(وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ)بإبطال أعمالهم

(وَلَٰكِنۡ)كانوا

(أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ) حيـــــــــث:–

1–كفروا بآيات الله

2–و كذبوا رسوله

3–و حرصوا على إطفاء نور الله

هذه الأمور هى التى أحبطت أعمالهم و ذهبت بأموالهم117

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ)

ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب و غيرهم :–

1–يطلعونهم على سرائرهم

2–أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية

و ذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من:–العداوة و البغضاء فظهرت على أفواههم

*البخارى6611 -عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-
"مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ(هو من يقوم مقام الذاهب و يسد مسده من الحكام و الأمراء و القضاة و الولاة)إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ
(مثنى بطانة و بطانة الرجل خاصته و أهل مشورته في الأمور):-
1-بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وَ تَحُضُّهُ عَلَيْهِ(تحثه على فعله و تؤكد عليه فيه)
2-وَ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَ تَحُضُّهُ عَلَيْهِ وَ المَعْصُومُ(المحفوظ من شر بطانة السوء و الوقوع فيما يجر إلى الهلاك)مَنْ عَصَمَ اللَّهُ "
*فَفِي هَذَا الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّة لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ الَّتِي فِيهَا :-
1-اسْتِطَالَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ
2-و اطِّلاع عَلَى دَوَاخل أمورهم الَّتِي يُخْشَى أَنْ يُفْشوها إِلَى الْأَعْدَاءِ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ
وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى:-{لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ}

(وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ)مما يسمع منهم

فلهذا (لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا)لا يقصرون فى افسادكم بـــــــ:–

1–حصول الضرر عليكم و المشقة

2–و عمل الأسباب التي فيها ضرركم

3–و مساعدة الأعداء عليكم

(وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ)و هم يفرحون بما يصيبكم من ضرر و مكروه

(قَدْ بَدَتِ)لَاحَت

(ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ)عَلَى صَفحات وُجُوهِهِمْ وَ فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ

(وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)

مَعَ مَا هُمْ مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ وَ أَهْلِهِ مَا لَا يَخْفَى مِثْلُهُ عَلَى لَبِيبٍ عَاقِلٍ

قال الله للمؤمنين (قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ)التي فيها مصالحكم الدينية و الدنيوية

(إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ)فتعرفونها و تفرقون بين الصديق و العدو فليس كل أحد يُجعل بطانة

*و إنما العاقل من إذا ابتلى بمخالطة العدو أن تكون مخالطة فى ظاهره و لا يطلعه من باطنه على شيء

و لو تملق له و أقسم أنه من أوليائه118

*قال الله مهيجا للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب و مبينا شدة عداوتهم :–

(هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ)

جنس الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه و هم لا يؤمنون بكتابكم

(وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا)بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان

(وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ)أطراف الأصابع (مِنَ)شدة(ٱلْغَيْظِ)عليكم

(قُلْ)لهم -أيها الرسول(مُوتُوا۟)بشدة (بِغَيْظِكُمْ).

*و هذا فيه بشارة للمؤمنين:–

1–أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم

2–و إن غيظهم لا يقدرون على تنفيذه

–بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)هُوَ عَلِيمٌ بِمَا تَنْطَوِى عَلَيْهِ ضَمَائِرُكُمْ و تُكِنُّه سَرَائِرُكُم مِنَ الْبَغْضَاءِ وَ الْحَسَدِ وَ الْغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ هُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيَكُمْ خِلَافَ مَا تُؤَمِّلُونَ

وَ فِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا فَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْها119

(إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ)كالنصر على الأعداء و حصول الفتح و الغنائم

(تَسُؤْهُمْ)تغمهم و تحزنهم

(وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ)إن وقع بكم مكروه من هزيمة أو نقص فى الأموال و الأنفس و الثمرات(يَفْرَحُواْ بِهَا)

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ)أذى (كَيْدُهُمْ)مكرهم(شَيْـًٔا)

فإذا أتيتم بالأسباب التى وعد الله عليها النصر و هى:-

1- الصبــــــــر

2-و التقــــــــوى

←1-لم يضركم مكرهم

2-بل يجعل الله مكرهم فى نحورهم

(إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

لأنه محيط بهم علمه و قدرته فلا منفذ لهم عن ذلك و لا يخفى عليهم منهم شى120

*ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ وَ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الِاخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ بَيَانِ صَبْرِ الصَّابِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى:-

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

*وَ كَانَتْ وقعةُ أُحُدٍ يومَ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ ثَلَاثٍ مِنَ الْهِجْرَةِ.
قَالَ قَتَادَةُ لِإِحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَوَّال
وَ قَالَ عِكْرِمة: يَوْمَ السَّبْتِ لِلنِّصْفِ مِنْ شَوَّالٍ فَاللَّهُ أَعْلَمُ.
وَ كَانَ سَبَبُهَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ قُتل مَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يوْمَ بَدْر و سَلمَت العيرُ بِمَا فِيهَا مِنَ التِّجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي سُفْيان فَلَمَّا رَجعَ قفلُهُم إِلَى مَكَّةَ قَالَ أَبْنَاءُ مَنْ قُتل وَ رُؤَسَاءُ مَنْ بَقِيَ لِأَبِي سُفْيَانَ:-
ارْصُدْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ وَ جَمَعُوا الْجُمُوعَ وَ الْأَحَابِيشَ وَ أَقْبَلُوا فِي قَرِيبٍ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ أُحدٍ تِلْقاء الْمَدِينَةِ فَصَلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺيومَ الْجُمُعَةِ
فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا صَلى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يُقَالُ لَهُ:- مَالِكُ بْنُ عَمْرو وَ اسْتَشَارَ النَّاسَ:-
أَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ؟ فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ بِالْمُقَامِ بِالْمَدِينَةِ فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشرِّ مَحْبس
وَ إِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وُجُوهِهِمْ وَ رَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَ إِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ. وَ أَشَارَ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِم
فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَلَبِسَ لأمَتَه وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ وَ قَدْ ندم بَعْضُهُمْ وَ قَالُوا:-
لَعَلَّنَا استكرَهْنَا رسولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ شِئْتَ أَنْ نَمْكُثَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
"مَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأمَتَه أَنْ يَرْجِعَ حَتى يَحْكُمَ اللَّهُ لَه".

فَسَارَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِه
فَلَمَّا كَانَ بالشَّوط رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فِي ثُلُث الْجَيْشِ مُغْضَبا لِكَوْنِهِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَوْلِهِ وَقَالَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ:- لَوْ نَعْلَمُ الْيَوْمَ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ وَ لَكِنَّا لَا نَرَاكُمْ تُقَاتِلُونَ الْيَوْمَ.
وَ اسْتَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺسَائِرًا حَتَّى نَزَلَ الشِّعْب مِنْ أُحُد فِي عَدْوَةِ الْوَادِى.
وَ جَعَلَ ظَهْرَهُ وَ عَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ وَ قَالَ:"لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ".
وَ تَهَيَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺلِلْقِتَالِ وَ هُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ و أَمَّر عَلَى الرُّمَاة عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرو بْنِ عَوْفٍ وَ الرُّمَاةُ يَوْمَئِذٍ خَمْسُونَ رَجُلًا فَقَالَ لَهُمْ:"انْضَحُوا الخَيْلَ عَنَّا وَ لا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ.
و الْزَمُوا مَكَانَكُمْ إنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أوْ عَلَيْنَا و إنْ رَأَيْتُمُونَا تَخطَّفُنا الطَّيْرُ فَلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ".
وَ ظَاهَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺبَيْنَ دِرْعَيْنِ وَ أَعْطَى اللِّوَاءَ مُصْعَب بْنَ عُمَير أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ.
وَ أَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺبَعْضَ الغِلْمان يَوْمَئِذٍ وَ أَرْجَأَ آخَرِينَ حَتَّى أَمْضَاهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ بِقَرِيبٍ مِنْ سَنَتَيْنِ.و تعبَّأت قُرَيْشٌ وَ هُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَ مَعَهُمْ مِائَتَا فَرَس قَدْ جَنبوها
فَجَعَلُوا عَلَى مَيْمَنة الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ: وَ عَلَى الْمَيْسَرَةِ عِكْرِمة بْنَ أَبِي جَهْل
وَ دَفَعُوا إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ اللِّوَاءَ.
ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوَاضِعِهِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَاتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.
وَ لِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ}أى:-
بَيّن لهم منازلهم و نجعلهم مَيْمَنة و مَيْسَرة وَ حَيْثُ أَمَرْتَهُمْ {وَاللَّهُ سَمِيعٌ }لِمَا تَقُولُونَ(عَلِيمٌ)بِضَمَائِرِكُمْ.

هذه الآيات نزلت في وقعة « أُحد » و قصتها مشهورة فى السير و التواريخ و لعل الحكمة فى ذكرها في هذا الموضع و أدخل فى أثنائها وقعة « بدر »لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا و اتقوا:-

1- نصـــــــرهم

2-و رد كيـــــــــد الأعداء عنهم

و كان هذا حكما عاما و وعدا صادقا لا يتخلف مع الإتيان بشرطه فذكر نموذجا من هذا في هاتين القصتين و أن الله نصر المؤمنين في « بدر » لما صبروا و اتقوا و أدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر

*و من حكمة الجمع بين القصتين:-

أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبون فيخف عنهم البلاء و يشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو فى الحقيقة خير لهم كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرا يسيرا *و قد أشار تعالى إلى هذه الحكمة فى قوله:-

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) آل عمران: ١٦٥

و حاصل قضية « أحد » و إجمالها أن المشركين لما رجع فُلُهم من « بدر » إلى مكة و ذلك فى سنة اثنتين من الهجرة :-

–استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال و الرجال و العدد حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم و شفاء غيظهم

*ثم وجهوا من مكة للمدينة فى ثلاثة آلاف مقاتل حتى نزلوا قرب المدينة فخرج النبى ﷺإليهم هو و أصحابه بعد المراجعة و المشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج و خرج فى ألف

*فلما ساروا قليلا رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلث الجيش ممن هو على مثل طريقته

*و همت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا و هم بنو سلمة و بنو حارثة فثبتهم الله فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺفي مواضعهم و أسندوا ظهورهم إلى أحد

*و رتب النبىﷺخمسين رجلا من أصحابه في خلة في جبل « أحد »

*و أمرهم أن يلزموا مكانهم و لا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم

*فلما التقى المسلمون و المشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة و خلفوا معسكرهم خلف ظهورهم

*و اتبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون

*فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبى ﷺفى الجبل قال بعضهم لبعض:–

الغنيمة الغنيمة ما يقعدنا هاهنا و المشركون قد انهزموا و وعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه

*فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير منهم أميرهم عبد الله بن جبير جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع و استدبرت المسلمين و قاتلت ساقتهم فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها و كفر بها عنهم و أذاقهم فيها عقوبة المخالفة فحصل ما حصل من قتل من قتل منهم ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل « أحد » و كف الله عنهم أيدى المشركين و انكفأوا إلى بلادهم و دخل رسول الله ﷺو أصحابه المدينة

كيفية الثبات داخليا 121-200

قال الله تعالى (وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ)

و الغدو هاهنا مطلق الخروج ليس المراد به الخروج فى أول النهار لأن النبى ﷺو أصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة

غزوة بدر 121-129

(تُبَوِّئُ)تنزل و ترتب

(ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ)كل فى مقعده اللائق به

و فيها أعظم مدح للنبى ﷺحيث هو :–الذى يباشر تدبيرهم و إقامتهم فى مقاعد القتال

و مــــــــا ذاك إلا :–

1–لكمال علمه و رأيه

2–و سداد نظره

3–و علو همته حيث يباشر هذه الأمور بنفسه و شجاعته الكاملة ﷺ

(وَٱللَّهُ سَمِيعٌ)لجميع المسموعات و منه أنه يسمع ما يقول المؤمنون و المنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه

(عَلِيمٌ)بنيات العبيد فيجازيهم عليها أتم الجزاء و أيضا فالله سميع عليم بكم

1–يكلؤكم

2–و يتـولى تدبير أموركم

3–و يؤيدكم بنصره

كما قال تعالى لموسى و هارون(قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ) طه: ٤٦ 121

إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ
أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ
هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ
وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ
فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

و من لطفه بهم و إحسانه إليهم أنه(إِذۡ هَمَّت)من هم بالأمر إذا عزم على القيام به ولم يفعله

(طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ) من المؤمنين

(أَن تَفۡشَلَا)تجبنا و تضعفا عن القتال و هم بنو سلمة و بنو حارثة
حين حدثتهم أنفسهم بالرجوع مع زعيمهم المنافق:-عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول
*البخارى4051-عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ:نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا:{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ} [آل عمران: 122]
بَنِي سَلِمَةَ وَ بَنِي حَارِثَةَ وَ مَا أُحِبُّ(أى نزولها محبب إلى لما ذكر فيها من ولاية الله تعالى)أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ وَ اللَّهُ يَقُولُ:{وَ اللَّهُ وَلِيُّهُمَا}

فلهذا قال (وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ)ناصرهما و حافظهما و متولى أمرهما بالتوفيق

أى: بولايته الخاصة التي هي لطفه بأوليائه و توفيقهم لما فيه صلاحهم و عصمتهم عما فيه مضرتهم

*فمن توليه لهما أنهما لما هَمَّا بهذه المعصية العظيمة و هي الفشل و الفرار عن رسول الله ﷺ عصمهما لما معهما من الإيمان كما قال تعالى:

(ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)البقرة:٢٥٧ثم قال (وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) ففيها الأمر بالتوكل الذى هو :-

اعتماد القلب على الله فى:-1-جــــلب المنافع 2-و دفـــــع المضار

*مع:- 1-الثــــــقة بالله 2-و أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله

3-و أن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم و خصوصا في مواطن الشدة و القتال

*فإنهم مضطرون إلى:-

1-التوكل و الاستعانة بربهم و الاستنصار له 2-و التبرى من حولهم و قوتهم 3-و الاعتماد على حول الله

فبذلك ينصرهم و يدفع عنهم البلايا و المحن122 ثم قال تعالى:-

(وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ)

*كقوله(لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)التوبة

و هذا امتنان منه على عباده المؤمنين و تذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر

(وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ)فى قلة عَددهم و عُددهم مع كثرة عدد عَدوهم و عُددهم

*و كانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة خرج النبى ﷺمن المدينة بثلاث مئة و بضعة عشر من أصحابه

*و لم يكن معهم إلا سبعون بعيرا و فرسان لطلب عير لقريش قدمت من الشام فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكاك عيرهم

*و خرجوا فى زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة و السلاح العام و الخيل الكثيرة فالتقوا هم و المسلمون فى ماء يقال له « بدر » بين مكة و المدينة فاقتتلوا

*و نصر الله المسلمين نصرا عظيما :-

1-فقتـــــلوا من المشركين سبعين قتيلا من صناديد المشركين و شجعانهم

2-و أســـــروا سبعين

3-و احتووا على معسكرهم ستأتى - إن شاء الله - القصة فى سورة الأنفال فإن ذلك موضعها

*و لكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم و يشكروه فلهذا قال :-

(فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ)لأن من اتقى ربه فقد شكره و من ترك التقوى فلم يشكره123

اذكر-أيها النبى- ما كان من أمر أصحابك فى «بدر» حين شقَّ عليهم أن يأتى مَدَد للمشركين فأوحينا إليك أن تقول لهم:(إِذۡ تَقُولُ)يا محمد

(لِلۡمُؤۡمِنِينَ) يوم بدر مبشرا لهم بالنصر.

(أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ)معونة ربكم

(أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ)من السماء إلى أرض المعركة(مُنزَلِينَ)يثبتونكم و يقاتلون معكم﴿١٢٤﴾

(بَلَىٰٓۚ)يكفيكم هذا المَدَد. و بشارة أخرى لكم(إِن تَصۡبِرُواْ)على لقاء العدو

(وَتَتَّقُواْ)الله بِفعْل ما أمركم به و اجتناب ما نهاكم عنه

(وَيَأْتُوكُم)و يأت كفار «مكة»(مِّن فَوْرِهِمْ)على الفور مسرعين لقتالكم يظنون أنهم يستأصلونكم أى:- من مقصدهم هذا و هو وقعة بدر

(هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

معلمين بعلامة الشجعان.قد أعلموا أنفسهم و خيولهم بعلامات واضحات

*فشرط الله لإمدادهم ثــــــلاثة شـــــــروط:

1-الصـــــــبر

2-و التقــــــوى

3-و إتيـــــــان المشركين من فورهم هذا فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين و إمدادهم بهم

*و أما وعد النصر و قمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم فى قوله: -

(وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا) آل عمران: ١٢٠ 125

(وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ)إمداده لكم بالملائكة(إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ)تستبشرون بها و تفرحون

(وَلِتَطْمَئِنَّ)تهدأ و تطمئن(قُلُوبُكُم بِهِۦ)فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم

(وَمَا ٱلنَّصْرُ)الحقيقى الذى لا معارض له(إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ)

فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه

و إن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليبين لعباده:-

1-أن الأمر كله بيديه 2-و مرجع الأمور إليه

و لهذا قال(مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ)فلا يمتنع عليه مخلوق بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره و قهره

(ٱلْحَكِيمِ)الذى يضع الأشياء مواضعها و له الحكمة فى إدالة الكفار فى بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة (أدالَ يُديل، أدِلْ، إدالةً، فهو مُديل، و المفعول مُدال أدال الشَّىءَ: جَعَله مداولة، أى تارة لهؤلاء و تارة للآخرين)

قال تعالى:-(ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ) محمد ٤

(ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) محمد 126

*يخبر تعالى أن نصره عباده المؤمنين لأحد أمـــــــرين:-

الامر الاول:-(لِيَقْطَعَ)إما أن يقطع(طَرَفًا)جانبا أو ركنا(مِّنَ)أركان(ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ)

*إمــــا :-

1-بقتل 2-أو أسر 3-أو استيلاء على بلد 4-أو غنيمة مال

فيقوى بذلك المؤمنون و يذل الكافرون و ذلك لأن مقاومتهم و محاربتهم للإسلام تتألف من :-

أشخاصهم و سلاحهم و أموالهم و أرضهم

*فبهذه الأمور تحصل منهم المقاومة و المقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم

الأمر الثاني(أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ):-*يخزيهم و يردهم بغيظهم لما يَنَالون منكم ما أرادوا

*أن يريد الكفار بقوتهم و كثرتهم طمعا في المسلمين و يمنوا أنفسهم ذلك و يحرصوا عليه غاية الحرص و يبذلوا قواهم و أموالهم في ذلك

(فَيَنقَلِبُواْ)فيردهم(خَآئِبِينَ)لم ينالوا مقصودهم بل يرجعون بخسارة و غم و حسرة

*و إذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائرا بين هذين الأمرين غير خارج عنهما :-

1-إما نصـــر عليهم 2-أو خـــذل لهم 127

(لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4559 - عن سَالِمٌ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الفَجْرِ يَقُولُ:
«اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنًا وَ فُلاَنًا وَ فُلاَنًا بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»
فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}[آل عمران: 128] إِلَى قَوْلِهِ {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}

و جعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل:-

أبي سفيان بن حرب و صفوان بن أمية و سهيل بن عمرو و الحارث بن هشام

أنزل الله تعالى على رسوله نهيًا له عن الدعاء عليهم باللعنة و الطرد عن رحمة الله

كقوله(فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ)الرعد: ٤٠و كقوله (إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ) القصص: ٥٦

*مسلم 104 - (1791) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَ شُجَّ فِي رَأْسِهِ (حصل جرح في رأسه الشريف و الجراحة إذا كانت فى الوجه أو الرأس تسمى شجة)فَجَعَلَ يَسْلُتُ(يمسح) الدَّمَ عَنْهُ وَ يَقُولُ:-

«كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَ كَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَ هُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟»فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}[آل عمران: 128]

*إنما عليك البلاغ و إرشاد الخلق و الحرص على مصالحهم و إنما الأمر لله تعالى هو الذى يدبر الأمور و يهدي من يشاء و يضل من يشاء فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم

*إن اقتضت حكمته و رحمته :-

1-(أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ)و يمن عليهم بالإسلام فعل

2-إبقاءهم على كفرهم و عدم هدايتهم فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم و ضروها و تسببوا بذلك فعل

و قد تاب الله على هؤلاء المعينين و غيرهم فهداهم للإسلام رضى الله عنهم

و فى هذه الآية مما يدل على:-

1-أن اختيار الله غالب على اختيار العباد

2-و أن العبد و إن ارتفعت درجته و علا قدره قد يختار شيئا و تكون الخيرة و المصلحة فى غيره

3-و أن الرسول ﷺليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى

4-ففيها أعظم رد على من تعلق بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين و غيرهم

و أن هذا شرك فى العبادة نقص فى العقل:-

يتركون من الأمر كله له و يدعون من لا يملك من الأمر مثقال ذرة إن هذا لهو الضلال البعيد

*و تأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه و لم يذكر منهم سببا موجبا لذلك ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده من غير سبق سبب من العبد و لا وسيلة

*و لما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم و رتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية فقال:-

(أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ)

ليدل ذلك على كمال عدل الله و حكمته حيث وضع العقوبة موضعها و لم يظلم عبده

بل العبد هو الذى ظلم نفسه128

*و لما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال:-

(وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ)من الملائكة و الإنس و الجن و الحيوانات و الأفلاك و الجمادات كلها و جميع ما في السماوات و الأرض الكل ملك لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف المماليك فليس لهم مثقال ذرة من الملك

(يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ)و إذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته و تعذيبه

*فيغفر لمن يشاء بأن :-

1-يهديه للإسلام فيغفر شركه

2-و يمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه

(وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ)بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر و يعذبه على ذلك

*ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته و عموم مغفرته و سعة إحسانه و عميم إحسانه فقال:-

(وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ)ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه و مغفرته غلبت مؤاخذته

*فالآية فيها:-

الإخبار عن حالة الخلق و أن منهم من يغفر الله له و منهم من يعذبه فلم يختمها باسمين أحدهما دال على الرحمة و الثانى دال على النقمة

*بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة فله تعالى رحمة و إحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر و لا يدرك لها وصف فنسأله تعالى أن يتغمدنا و يدخلنا برحمته فى عباده الصالحين.

*تقدم فى مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغى له مراعاة الأوامر و النواهى فى نفسه و فى غيره

و أن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه – أولا– أن يعرف حده و ما هو الذى أمر به ليتمكن بذلك من امتثاله

فإذا عرف ذلك اجتهد و استعان بالله على امتثاله فى نفسه و فى غيره بحسب قدرته و إمكانه

و كذلك إذا نهى عن أمر عرف حده و ما يدخل فيه و ما لا يدخل ثم اجتهد و استعان بربه فى تركه

و أن هذا ينبغى مراعاته فى جميع الأوامر الإلهية و النواهى

و هذه الآيات الكريمات قد اشتملت:–

1–عن أوامر و خصال من خصال الخير أمر الله بها و حث على فعلها و أخبر عن جزاء أهلها

2–و على نواهي حث على تركها.

و لعل الحكمة –و الله أعلم– فى إدخال هذه الآيات أثناء قصة « أحد » أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين أنهم إذا صبروا و اتقوا نصرهم على أعدائهم و خذل الأعداء عنهم كما في قوله تعالى:

(وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ) آل عمران: ١٢٠

ثم قال: (بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) آل عمران: ١٢٥

*فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى التي يحصل بها النصر و الفلاح و السعادة

فذكر الله فى هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى و أحرى

و يدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ « التقوى » فى هذه الآيات ثلاث مرات:– مرة مطلقة و هي قوله:–

(أعدت للمتقين) و مرتين مقيدتين فقال:(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ) (واتقوا النار) 129

واجبات المؤمنين و امتحانهم 130-141

*(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)كل ما فى القرآن من قوله تعالى:–(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)

افعلوا كذا أو اتركوا كذا يدل على أن الإيمان هو السبب الداعى و الموجب لامتثال ذلك الأمر و اجتناب ذلك النهي لأن الإيمـــــــــان هو:–التصديق الكامل بما يجب التصديق به المستلزم لأعمال الجوارح

(لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ)نهاهم عن أكل الربا(أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ)

و ذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية و من لا يبالى بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر و لم يحصل منه شيء

قــــــالوا له:–

1- إما أن تقضى ما عليك من الدين

2-و إما أن نزيد فى المدة و يزيد ما فى ذمتك و زاده الآخر فى القدر

فيضطر الفقير و يستدفع غريمه و يلتزم ذلك اغتناما لراحته الحاضرة فيزداد – بذلك- ما فى ذمته أضعافا مضاعفة من غير نفع و انتفاع.

تنبيــه على-

1-شدة شناعته بكثرته

2-تنبيه لحكمة تحريمه

3-و أن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم.

و ذلك أن الله أوجب إنظار المعسر و بقاء ما فى ذمته من غير زيادة فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف فيتعين على المؤمن المتقى تركه و عدم قربانه لأن تركه من موجبات التقوى و الفلاح متوقف على التقوى

فلهذا قال:(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ)

بترك ما يوجب دخولها من الكفر و المعاصى على اختلاف درجاتها

فإن المعاصى كلها- و خصوصا المعاصى الكبار-:-

تجر إلى الكفر بل هى من خصال الكفر الذى أعد الله النار لأهله

*فترك المعاصى :-

1-ينـجى من النار

2-و يقـى من سخط الجبار

*و أفعـال الخير و الطاعة :-

1-تـوجب رضا الرحمن

2-و دخـول الجنان

3-و حصـول الرحمة131

و لهذا قال:(وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ)بفعل الأوامر امتثالا و اجتناب النواهى

(لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ)فطاعة الله و طاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى:-

(وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ) الأعراف١٥٦ 132

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ
١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ
إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ
قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠

(وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ)

ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته (وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ)فكيف بطولها

*كما قال تعالى فى صفة فرش الجنة (بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ) الرحمن: ٥٤ فما ظنك بالظهائر

*وَ قِيلَ: بَلْ عَرْضُهَا كَطُولِهَا؛ لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ وَ الشَّيْءُ الْمُقَبَّب وَ الْمُسْتَدِير عَرْضُه كَطُولِهِ.

وَ قَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي البخارى 7423 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:-
«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَ أَعْلَى الجَنَّةِ وَ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَ مِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»

(أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ)التي أعدها الله للمتقين فهم أهلها و أعمال التقوى هى الموصلة إليها 133

◄ وما ينفعني عَرْضُها ؟!

أخذ أحد الصالحين يبكي لما قرأ قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [3]، فقيل له: لقد أبكتك آية ما مِثْلُها يُبْكِي! إنها جنةٌ عريضةٌ واسعةٌ، فقال: يا ابن أخي؛ وما ينفعني عرضها إن لم يكن لي فيها موضع قدم[4].

[3] آل عمران: ١٣٣.

ثم وصف المتقين و أعمالهم فقال:-(ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ)فى حال عسرهم و يسرهم

*إن أيسروا أكثروا من النفقة *و إن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئا و لو قل.

*كقوله(ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ) البقرة: ٢٧٤

*وَ الْمَعْنَى:أَنَّهُمْ لَا يَشْغَلُهُمْ أمر عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَ الْإِنْفَاقِ فِي مَرَاضِيه وَ الْإِحْسَانِ إِلَى خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَ غَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ.

(وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ)و الذين يمسكون ما في أنفسهم من الغيظ بالصبر

*إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم:–

و هو امتلاء قلوبهم من الحنق الموجب للانتقام بالقول و الفعل

*هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية بل يكظمون ما فى القلوب من الغيظ و يصبرون عن مقابلة المسىء إليهم.

*البخارى6114 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺأَنَّ رَسُولَ اللَّهِﷺ قَالَ:-

لَيْسَ الشَّدِيدُ(القوى الحقيقى) بِالصُّرَعَةِ(الذى يغلب الرجال و يصرعهم)

إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ(يكظم غيظه ويتحلم ولا يعمل بمقتضى غضبه)عِنْدَ الغَضَبِ»

(وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ)يدخل فى العفو عن الناس:–العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل

*و العفو أبلغ من الكظم لأن العفو ترك المؤاخذة مع السماحة عن المسىء

*و هذا إنما يكون :–

1–ممن تحلى بالأخلاق الجميلة

2–و تخلى عن الأخلاق الرذيلة

3–و ممن تاجر مع الله

4–و عــــــــفا عن عباد الله :–

1–رحمة بهم

2 –و إحسانا إليهم

3 – و كراهة لحصول الشر عليهم

4–و ليعفو الله عنه

5–و يكون أجره على ربه الكريم لا على العبد الفقيركقوله(وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ)الشورى:40

*مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ مَوجدة عَلَى أَحَدٍ وَ هَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ

◄ عليّ بن الحسين

وهذا عليُّ بن الحسينِ يتخلق بصفات المتقين في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ

﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، قال عبد الرزاق: سَكَبَتْ جاريةٌ لِعليِّ بن الحسين عليه ماءً ليتوضأ؛ فسقطَ الإبريقُ من يدها على وجهه فَشَجَّهُ، فرفع رأسه إليها، فقالت الجارية: إن الله يقول: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ ، فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ فقال: عفا الله عنك، فقالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قال: أنت حُرَّةٌ لوجه الله تعالى!

[1] آل عمران: ١٣٤.

*ثم ذكر حالة أعم من غيرها و أحسن و أعلى و أجل و هى الإحسان فقال تعالى:-

(وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) و الإحســـــان نــــــوعان:

1-الإحسان فى عبادة الخالق

2-و الإحسان إلى المخلوق

*فالإحسان في عبادة الخالق:-فسرها النبى ﷺبقوله:-«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

*و أما الإحسان إلى المخلوق:-

1-فهو إيصال النفع الدينى و الدنيوى إليهم

2-و دفع الشر الدينى و الدنيوى عنهم

3-فيدخل فى ذلك أمرهم بالمعروف و نهيهم عن المنكر

1*و تعليم جاهلهم 2*و وعظ غافلهم 3*و النصيحة لعامتهم و خاصتهم4*و السعى فى جمع كلمتهم

5*و إيصال الصدقات و النفقات الواجبة و المستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم و تباين أوصافهم

6*فيدخل فى ذلك بذل الندى و كف الأذى و احتمال الأذى كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات

فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله و حق عبيده.

*مسلم (2588) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺقَالَ:-

(مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ)ذكروا فيه وجهين

أحدهما:-معناه أنه يبارك فيه و يدفع عنه المضرات فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية وهذا مدرك بالحس والعادة

و الثانى:-أنه وإن نقصت صورته كان فى الثواب المرتب عليه جبر لنقصه و زيادة إلى أضعاف كثيرة

(وَ مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا)

فيه أيضا وجهان أحدهما على ظاهره و من عرف بالعفو و الصفح ساد و عظم في القلوب و زاد عزه و إكرامه

و الثانى:-أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك

(وَ مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ) فيه أيضا وجهان

أحدهما يرفعه فى الدنيا و يثبت له بتواضعه فى القلوب منزلة و يرفعه الله عند الناس و يجل مكانه

و الثانى:-أن المراد ثوابه في الآخرة و رفعه فيها بتواضعه فى الدنيا

قال العلماء و هذه الأوجه فى الألفاظ الثلاثة موجودة فى العادة معروفة و قد يكون المراد الوجهين معا فى جميعها فى الدنيا و الآخرة 134

*ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جناياتهم و ذنوبهم فقال:-(وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ)ارتكبوا (فَٰحِشَةً)ذنبًا كبيرًا

(أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ)بارتكاب ما دونه

(ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ)

1-بادروا إلى التوبة و الاستغفار

2-و ذكروا ربهم و ما توعد به العاصين و وعد به المتقين

فســــــألوه:-

1-المغفرة لذنوبهم

2-و الستر لعيوبهم

*مـــــع:-

1-إقلاعهم عنها

2-و ندمهم عليها

*البخارى7507 -عن أَبَى هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ:- سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:-
1-"إِنَّ عَبْدًا اذنب ذَنْبًا-فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ:-
أَعَلِمَ عَبْدِى أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ وَ يَأْخُذُ بِهِ؟غَفَرْتُ لِعَبْدِى
2-ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ؟
فَقَالَ:-أَعَلِمَ عَبْدِى أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَ يَأْخُذُ بِهِ؟غَفَرْتُ لِعَبْدِى
3-ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ:-أَعَلِمَ عَبْدِى أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْب
وَ يَأْخُذُ بِهِ؟غَفَرْتُ لِعَبْدِى ثَلَاثًا(يقول غفرت لعبدى يكررها ثلاثا)فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ(ما دام إذا أذنب تاب)

(ما شاء) قال النووي في شرح الحديث:-لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب فى كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه و لو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته. قلت و الحاصل أن من جاءه الموت وهو تائب من ذنبه كان من المقبولين و الخطر أن يعود للذنب فيأتيه الموت فجأة قبل أن يتوب فيكون من الخاسرين]

*كقوله(أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ)التوبة: ١٠٤

(وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا)النساء: ١١٠

فلهذا قال:-(وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

*تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ عَنْ قَرِيبٍ وَ لَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَ يُصِرُّوا عَلَيْهَا غَيْرَ مقْلِعِين عَنْهَا
وَ لَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمُ الذَّنْبُ تَابُوا عَنْهُ 135

(أُو۟لَٰٓئِكَ)الموصوفون بتلك الصفات

(جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ)تزيل عنهم كل محذور (وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ)

فيها من النعيم المقيم و البهجة و السرور و البهاء و الخير و السرور و القصور و المنازل الأنيقة العاليات

و الأشجار المثمرة البهية و الأنهار الجاريات فى تلك المساكن الطيبات

(خَٰلِدِينَ فِيهَا)لا يحولون عنها و لا يبغون بها بدلا و لا يغير ما هم فيه من النعيم

(وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ)

عملوا لله قليلا فأجروا كثيرا فـ« عِنْدَ الصَبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الْسُّرَى »و عند الجزاء يجد العامل أجره كاملا موفرا

و السُّرَى هو سَيْرُ الليل خاصة و معنى المثل: أن الذى يمشى بالليل يَفرَح بمسِيرِه إذا طَلَع النهار بِخلاف الذى ينام ليله فإنه يَندم إذا طَلَع النهار فهو مثل كما يقول الميدانى فى (مجمع الأمثال) يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة.

*و هذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة و الجماعة على أن:–الأعمال تدخل فى الإيمان خلافا للمرجئة

و وجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية التى فى سورة الحديد نظير هذه الآيات و هى قوله تعالى:–

(سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ)

*فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به و برسله و هنا قال:–(أعدت للمتقين)136

*ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية و البدنية فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.ثم قال تعالى:–

(قَدۡ خَلَتۡ)مضت(مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ)أجيال و أمم كثيرة

و هذه الآيات الكريمات و ما بعدها فى قصة« أحد »يعزى تعالى عباده المؤمنين و يسليهم و يخبرهم أنه مضى قبلهم امتحنوا و ابتلى المؤمنون منهم بقتال الكافرين فلم يزالوا فى مداولة و مجاولة حتى جعل الله العاقبة للمتقين و النصر لعباده المؤمنين

و آخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين و خذلهم الله بنصر رسله و أتباعهم.

(فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ)بأبدانكم و قلوبكم

(فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ)فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية :–

1–قد خوت ديارهم و تبين لكل أحد خسارهم

2–و ذهب عزهم و ملكهم

3–و زال بذخهم و فخرهم

أفليس في هذا أعظم دليل و أكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل؟

و حكمة الله التى يمتحن بها عباده ليبلوهم و يتبين صادقهم من كاذبهم137

و لهذا قال تعالى: (هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ)

دلالة ظاهرة تبين للناس الحق من الباطل و أهل السعادة من أهل الشقاوة و هو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

(وَهُدٗى)لأنهم هم المنتفعون بالآيات فتهديهم إلى سبيل الرشاد

(وَمَوۡعِظَةٞ)تعظهم و تزجرهم عن طريق الغى (لِّلۡمُتَّقِينَ)

*و أما باقى الناس فهى بيان لهم تقوم به عليهم الحجة من الله ليهلك من هلك عن بينة.

*و يحتمل أن الإشارة فى قوله:-(هذا بيان للناس)للقرآن العظيم و الذكر الحكيم و أنه بيان للناس عموما

و هدى و موعظة للمتقين خصوصا و كلا المعنيين حق138

*يقول تعالى مشجعا لعباده المؤمنين و مقويا لعزائمهم و منهضا لهممهم:-

(وَلَا تَهِنُوا)و تضعفوا فى أبدانكم

(وَلَا تَحْزَنُوا)و لا تحزنوا فى قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة و ابتليتم بهذه البلوى

فإن الحزن فى القلوب و الوهن على الأبدان :-

1-زيـــــادة مصيبة عليكم

2-و عـــــون لعدوكم عليكم

*بـــــــل:-

1- شجعوا قلوبكم و صبروها

2-و ادفعوا عنها الحزن

3-و تصلبوا على قتال عدوكم

*و ذكر تعالى أنه لا ينبغي و لا يليق بهم الوهن و الحزن (وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

و هم الأعلون في الإيمان و رجاء نصر الله و ثوابه

فالمؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوى و الأخروى لا ينبغى منه ذلك و لهذا قال:-

(وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)139

*ثم سلاهم بما حصل لهم من الهزيمة و بيَّن الحكم العظيمة المترتبة على ذلك فقال:-

(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ)جراح أو قتل(مِّثْلُهُ)

*فأنتم و إياهم قد تساويتم فى القرح و لكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)النساء: ١٠٤

*و من الحكم فى ذلك أن هذه الدار يعطى الله منها المؤمن و الكافر و البر و الفاجر

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)يوم لهذه الطائفة و يوم للطائفة الأخرى

لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية و هذا بخلاف الدار الآخرة فإنها خالصة للذين آمنوا.

(وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا)

هذا أيضا من الحكم أنه يبتلى الله عباده بالهزيمة و الابتلاء (((((ليتبين المؤمن من المنافق)))

لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل فى الإسلام من لا يريده

فإذا حصل فى بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء تبين المؤمن حقيقة الذى يرغب فى الإسلام

فى:–الضراء و السراء و اليسر و العسر ممن ليس كذلك.

(وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ)و يُكْرِمَ أقوامًا منكم بالشهادة

و هذا أيضا من بعض الحكم لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل و لا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها

***فهذا من رحمته بعباده المؤمنين أن قيَّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية و النعيم المقيم**

(وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ)الذين ظلموا أنفسهم و تقاعدوا عن القتال في سبيله

***و كأن فى هذا تعريضا بذم المنافقين و أنهم مبغضون لله و لهذا ثبطهم عن القتال فى سبيله.**

(وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)النساء104 140

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ
وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ
فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ
أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ
وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ
وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾
وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا
وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

و هذه الهزيمة التي وقعت فى «أُحد» كانت:-

1-اختبارًا 2-و تصفية للمؤمنين 3-و تخليـصًا لهم من المنافقين

4–(وَلِيُمَحِّصَ)يميز(ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ)من ذنوبهم و عيوبهم

يدل ذلك على أن الشهادة و القتال في سبيل الله :–1–يكفر الذنوب 2–و يزيل العيوب

5–و ليميز الله أيضا المؤمنين من غيرهم من المنافقين فيتخلصون منهم و يعرفون المؤمن من المنافق

6–يكون سببا لأن(وَيَمۡحَقَ)يهلك(ٱلۡكَٰفِرِينَ)يستئصلهم بالعقوبة141

خطاب للمؤمنين و اسباب هزيمتهم فى أحد 142-156

فإنهم إذا انتصروا:–

1–بغوا 2–و ازدادوا طغيانا إلى طغيانهم ⬅يستحقون به المعاجلة بالعقوبة رحمة بعباده المؤمنين

(أَمۡ حَسِبۡتُمۡ)؟هذا استفهام إنكارى أى:–لا تظنوا (أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ)و لم تُبْتَلوا بالقتال و الشدائد؟

(وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ)و يعلم الله علما ظاهرا للخلق (ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ)المجاهدين (مِنكُمۡ)فى سبيله

(وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ)على مقاومة الأعداء

و لا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون:–1– مشقة 2–و احتمال المكاره فى سبيل الله و ابتغاء مرضاته

*فإن الجنة أعلى المطالب و أفضل ما به يتنافس المتنافسون

*أَحَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمْ تُبْتَلوا بِالْقِتَالِ وَ الشَّدَائِدِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:-

(أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ
أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ)البقرة: ٢١٤

(الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ)العنكبوت

و كلما عظم المطلوب :-

1-عظمت وسيلته 2-و العمل الموصل إليه

*فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة و لا يدرك النعيم إلا بترك النعيم

و لكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها و تمرينها عليها و معرفة ما تئول إليه:-تنقلب عند أرباب البصائر منحا يسرون بها و لا يبالون بها و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء 142

*ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه و يودون حصوله فقال:-

(وَلَقَدۡ كُنتُمۡ)أيها المؤمنون-قبل غزوة «أُحد»(تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ)أى لقاء العدو

-و ذلك أن كثيرا من الصحابة رضى الله عنهم ممن فاته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهدا يبذلون فيه جهدهم

*مسلم (1742) عَنْ أَبِي النَّضْرِ عَنْ كِتَابِ رَجُلٍ مِنْ أَسْلَمَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ:-

قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَ اسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ

(قد كثرت الأحاديث فى الأمر بسؤال العافية و هى من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات فى البدن و الباطن فى الدين و الدنيا و الآخرة)

فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا(هذا حث على الصبر والقتال و هو آكد أركانه وقد جمع الله سبحانه آداب القتال في قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله})

وَ اعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»(معناه ثواب الله و السبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف فى سبيل الله و مشى المجاهدين فى سبيل الله فاحضروا فيه بصدق و أثبتوا)ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَ قَالَ:-

«اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَ مُجْرِيَ السَّحَابِ وَ هَازِمَ الْأَحْزَابِ اهْزِمْهُمْ وَ انْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»

قال الله تعالى لهم: (فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ)رأيتم ما تمنيتم بأعينكم أى الْمَوْتَ شَاهَدْتُمُوهُ فِي لَمَعانِ السُّيُوفِ وَ حَدِّ الأسِنّة وَ اشْتِبَاكِ الرِّماح وَ صُفُوفِ الرِّجَالِ لِلْقِتَالِ.

(وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ)فما بالكم و ترك الصبر؟

هذه حالة لا تليق و لا تحسن خصوصا لمن تمنى ذلك و حصل له ما تمنى فإن الواجب عليه:-

1- بـــــذل الجهد 2-و استفـــــــراغ الوسع فى ذلك.

و فى هذه الآية دليل على:-أنه لا يُكره تمنى الشهادة

و وجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم و لم ينكر عليهم و إنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها 143

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ)ليس ببدع من الرسل

(قَدۡ خَلَتۡ)مضت

(مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ)بل هو من جنس الرسل الذين قبله وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم و تنفيذ أوامره ليسوا بمخلدين

و ليس بقاؤهم شرطا فى امتثال أوامر الله بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت و بكل حال

*البخارى 4452 - عن عَائِشَةَ أَخْبَرَتْ أبي سلمة: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ ﷺأَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمُ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ

فَتيَمَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺوَ هُوَ مُغَشًّى(مغطى)بِثَوْبِ حِبَرَةٍ(ثوب يمانى)فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَ بَكَى ثُمَّ قَالَ:«بِأَبِي أَنْتَ وَ أُمِّي وَ اللَّهِ لاَ يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِى كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا»

4454 - قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَ تَرَكُوا عُمَرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:-

أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ قَالَ اللَّهُ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران: 144] إِلَى قَوْلِهِ {الشَّاكِرِينَ}

وَ قَالَ: وَ اللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا "فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ:-

«وَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ(انهارت قواى و فى نسخة (فعقرت) بفتح العين أى دهشت و تحيرت)

حَتَّى مَا تُقِلُّنِى(تحملنى)رِجْلاَىَ وَ حَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَدْ مَاتَ»

و لهذا قال:-(أَفَإِيْن مَّاتَ)بانقضاء أجله

(أَوْ قُتِلَ)كما أشاعه الأعداء

(انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ)رجعتم عن دينكم بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد أو غير ذلك؟

(وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ)و من يرجِعْ منكم عن دينه

(فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ)إنما يضر نفسه ضررًا عظيمًا.و إلا فالله تعالى غنى عنه و سيقيم دينه ويعز عباده المؤمنين أما مَن ثبت على الإيمان و شكر ربه على نعمة الإسلام فإن الله يجزيه أحسن الجزاء.

*فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه:- مدح من ثبت مع رسوله و امتثل أمر ربه فقال:-

(وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ)و الشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى فى كل حال.

*و فى هذه الآية الكريمة :-

1-إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فَقْدُ رئيس و لو عَظُم

*و ما ذاك إلا :-

1-بالاستعداد فى كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه إذا فُقِدَ أحدُهم قام به غيره

2-و أن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله و الجهاد عنه بحسب الإمكان لا يكون لهم قصد فى رئيس دون رئيس فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم و تستقيم أمورهم.

2-و فى هذه الآية أيضا أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر و أصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺلأنهم هم سادات الشاكرين144

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ)لن يموت أحد

(إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ)و قدره و حتى يستوفى المدة التى قدرها الله له

(كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ)فمن حَتَّم عليه بالقدر أن يموت مات و لو بغير سبب

*و من أراد بقاءه فلو أتى من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله و ذلك أن الله قضاه و قدره

و كتبه إلى أجل مسمى:–(فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ) الأعراف: ٣٤

وَ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ للجُبَناء وَ تَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ فَإِنَّ الْإِقْدَامَ وَ الْإِحْجَامَ لَا يَنْقُص مِنَ الْعُمُرِ وَ لَا يَزِيدُ فِيهِ

*ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا و الآخرة ما تعلقت به إراداتهم فقال:–

(وَمَن يُرِدۡ)يطلب بعمله(ثَوَابَ)عَرَض(ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ)نعطه

(مِنۡهَا)ما قسمناه له من رزق و لا حظَّ له فى الآخرة

(وَمَن يُرِدۡ)يطلب بعمله الجزاء من الله (ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ)نمنحه ما طلبه

(مِنۡهَاۚ)جزاءًا وافرًا مع ما لَه فى الدنيا من رزق مقسوم فهذا قد شَكَرَنا بطاعته و جهاده و سنجزى الشاكرين

(كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا)الإسراء(مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ)الشورى: ٢٠

(وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ)خيراً. و لم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على:–

1–كثرته و عظمته 2–و ليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة و كثرة و حسن 145

*ثم سلى الله المؤمنين و حثهم على الاقتداء بهم و الفعل كفعلهم و أن هذا أمر قد كان متقدما لم تزل سنة الله جارية بذلك فقال:–

(وَكَأَيِّن)كم(مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ)جماعات كثيرون من أتباعهم الذين قد ربتهم الأنبياء بـــــ:–

1–الإيمان 2–و الأعمال الصالحة فأصابهم قتل و جراح و غير ذلك.

(فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ)ما ضعفت قلوبهم و لا وهنت أبدانهم

(وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ)ذلوا لعدوهم بل صبروا و ثبتوا و شجعوا أنفسهم

و لهذا قال: (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ) 146

ثم ذكر قولهم و استنصارهم لربهم فقال:–

(وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ)فى تلك المواطن الصعبة (إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا)

و الإسراف:–هو مجاوزة الحد إلى ما حُرم علموا أن الذنوب

و الإسراف من أعظم أسباب الخذلان و أن التخلى منها من أسباب النصر فسألوا ربهم مغفرتها.

*ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر بل اعتمدوا على الله

(وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا)و سألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاة الأعداء الكافرين

(وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)و أن ينصرهم عليهم

*فجمـــــــعوا بيـــــــن:-1-الصبر و ترك ضده 2-و التوبة و الاستغفار 3-و الاستنصار بربهم

لا جرم أن الله نصرهم و جعل لهم العاقبة فى الدنيا و الآخرة147

و لهذا قال: (فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا)من النصر و الظفر و الغنيمة

(وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ)و هو الفوز برضا ربهم و النعيم المقيم الذى قد سلم من جميع المنكدات

و ما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال فجازاهم بأحسن الجزاء

فلهذا قال: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) فى :-1-عبادة الخالق 2-و معاملة الخلق

و من الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء الموصوفين148ثم قال تعالى:—

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ
﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ
بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾
وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ
ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾
۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

*يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ تُورِثُ الرَّدَى فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ

فقَالَ:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)من اليهود و النصارى و المنافقين و المشركين

(يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ)يضلوكم عن طريق الحق و ترتدُّوا عن دينكم

(فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ)قصدهم ردهم إلى الكفر الذى عاقبته الخيبة و الخسران

*فاقدين لكل خير فى الدنيا و لأنفسكم و أهليكم يوم القيامة149

(بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ)ثم أخبر أنه مولاهم و ناصرهم ففيه إخبار لهم بذلك و بشارة :-

1-بأنه سيتولى أمورهم بلطفه 2-و يعصمهم من أنواع الشرور

*و فى ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وليا و ناصرا من دون كل أحد150

(سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ)الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم و قد فعل تعالى

*البخارى335 - عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺقَالَ:-أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي:-

1-نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ(هو الخوف يقذف فى قلوب أعدائى)مَسِيرَةَ شَهْرٍ(بينى و بينه مسيرة شهر)

2-وَ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَ طَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ

3-وَ أُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ(جمع مغنم و هو الغنيمة و هو كل ما يحصل عليه المسلمون من الكفار قهرا)وَ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي

4-وَ أُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ

5-وَ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَ بُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً

فمن ولايته و نصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقى فى قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب

*و ذلك أن المشركين – بعدما انصرفوا من وقعة « أحد »تشاوروا بينهم و قالوا:–

كيف ننصر فبعد أن قتلنا منهم من قتلناو هزمناهم و لمَّا نستأصلهم؟

فَهَمُّوا بذلك فألقى الله الرعب فى قلوبهم فانصرفوا خائبين

*و لا شك أن هذا من أعظم النصر لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمـرين:–

1–إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا 2–أو يكبتهم فينقلبوا خائبين و هذا من الثانى.

*ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين فقال:–

(بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ)

ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد و الأصنام التى اتخذوها على حسب أهوائهم و إرادتهم الفاسدة من غير حجة و لا برهان و انقطعوا من ولاية الواحد الرحمن

*فَمِن ثَمَّ كان المشركُ مرعوبا من المؤمنين لا يعتمد على ركن وثيق و ليس له ملجأ عند كل شدة و ضيق هذا حاله فى الدنيا

*و أما فى الآخرة فأشد و أعظم (وَمَأۡوَىٰهُمُ)مستقرهم(ٱلنَّارُۚ)الذى يأوون إليه و ليس لهم عنها خروج

(وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ)بسبب ظلمهم و عدوانهم صارت النار مثواهم151

(وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ)وعدهم الله النصر فانتصروا أى :-أول النهار

–بالنصر فنصركم عليهم حتى ولوكم أكتافهم و طفقتم فيهم قتلا حتى صرتم سببا لأنفسكم و عونا لأعدائكم عليكم

(إِذۡ تَحُسُّونَهُم)تقتلونهم(ليس من الاحساس كما يتبادر)(بِإِذۡنِهِۦ)

(حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ)فلما حصل منكم الفشل و هو الضعف و الخور

(وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ)كما وقع للرماة الذى فيه ترك أمر الله بالائتلاف و عدم الاختلاف فاختلفتم

*فمن قائل :–

1–نقيم فى مركزنا الذى جعلنا فيه النبى ﷺ 2–و مِنْ قائلٍ:ما مَقامنا فيه و قد انهزم العدو و لم يبق محذور

(وَعَصَيۡتُم)فعصيتم الرسول و تركتم أمره

(مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم)الله

(مَّا تُحِبُّونَۚ)هو انخذال أعدائكم لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب أعظم من غيره.

فالواجب فى هذه الحال خصوصًاو فى غيرها عموما امتثال أمر الله و رسوله.

(مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا)

هم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب و هم الذين رغبوا فى المغنم حين رأوا الهزيمة

(وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ)و هم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺو ثبتوا حيث أمروا.

(ثُمَّ صَرَفَكُمۡ)أى صرف الله وجوهكم(عَنۡهُمۡ)عن عدوكم

(لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ)ليختبركم فيرى المؤمن الصادق من المنافق الكاذب و الصابر من الجزع

و قد علم الله ندمكم و توبتكم

فصار الوجه لعدوكم ابتلاء من الله لكم و امتحانا ليتبين المؤمن من الكافر و الطائع من العاصى و ليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم

فلهذا قال: (وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ) لم يستأصلكم

(عفا الله عنكم)ذلك الصنيع و ذلك و الله أعلم لكثرة عُدد العدو و عَددهم و قلة عدد المسلمين و عَددهم

*و ذلك إخبار عن ترك القتال لما أصابهم من الضعف حينما رأوا أنفسهم محصورين بين رماة المشركين و مقاتليهم فأصعدوا في الوادى هاربين بأنفسهم و حصل هذا بعلم الله تعالى و تدبيره

(وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ)ذو فضل عظيم

(عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)حيث منَّ عليهم بالإسلام و هداهم لشرائعه و عفا عنهم سيئاتهم و أثابهم على مصيباتهم.

*و من فضله على المؤمنين أنه لا يقدّر عليهم خيرا و لا مصيبة إلا كان خيــرا لهم:–

*إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين

*و إن أصابتهم ضراء فصبروا جازاهم جزاء الصابرين.

*البخارى 4043 - عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ:-

لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَ أَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ وَ أَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ

وَ قَالَ: «لاَ تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا وَ إِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا»

فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الجَبَلِ رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ

فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الغَنِيمَةَ الغَنِيمَةَ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ:- عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺأَنْ لاَ تَبْرَحُوا فَأَبَوْا

فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا وَ أَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟

فَقَالَ: « لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: « لاَ تُجِيبُوهُ» فَقَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟

فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلاَءِ قُتِلُوا فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً لَأَجَابُوا فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ

فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ»

قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: " قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَ أَجَلُّ " قَالَ أَبُو سُفْيَانَ:-لَنَا العُزَّى وَ لاَ عُزَّى لَكُمْ

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:-«أَجِيبُوهُ»قَالُوا:-مَا نَقُولُ؟ قَالَ:-«قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا وَ لاَ مَوْلَى لَكُمْ»

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ وَ الحَرْبُ سِجَالٌ وَ تَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَ لَمْ تَسُؤْنِي

*قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ:عن الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ قَالَ:-وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُنِى أَنْظُرُ إِلَى خَدَم هِنْدَ وَ صَوَاحِبَاتِهَا مُشَمِّرات هَوَارِبَ مَا دُونُ أخْذهن كَثِيرٌ وَ لَا قَلِيلٌ وَ مَالَتِ الرُّماة إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ كَشَفْنا الْقَوْمَ عَنْهُ يُرِيدُونَ النَّهْبَ وَ خَلَّوا ظهورنَا لِلْخَيْلِ فَأَتَتْنا مِنْ أَدْبَارِنَا وَ صَرَخَ صَارِخٌ:-أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتل.

فَانْكَفَأْنَا وَ انْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنا أَصْحَابَ اللِّوَاءِ حَتَّى مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ 152

*يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال و يعاتبهم على ذلك فقال:

(إِذْ تُصْعِدُونَ)تجدون في الهرب

(فى الجبل هاربين من أعدائكم و أنتم لا تلوون علي أحد من الدهش و الخوف و الرعب)

(تمضون على وجوهكم من الاصعاد و هو الابعاد على الارض

قال القرطبى:فالاصعاد هو السير فى مستو من الارض و بطون الأودية و الشعاب و الصعود هو :-

الارتفاع على الجبال و السطوح و السلاليم و الدرج ليس ترقون من الصعود)

(وَلَا تَلْوُۥنَ)تلتفتون(عَلَىٰٓ)إلى(أَحَدٍ)لِمَا اعتراكم من الدهشة و الخوف و الرعب

*أي: لا يلوي أحد منكم على أحد و لا ينظر إليه بل ليس لكم هم إلا الفرار و النجاء عن القتال.

و الحال أنه ليس عليكم خطر كبير إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء و يباشر الهيجاء

بل (وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ)يناديكم (فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ)من خلفكم يقول:-« إليَّ عباد الله »

*وَ هُوَ قَدْ خَلَّفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهوركم يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْك الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَ إِلَى الرَّجْعَةِ وَ الْعَوْدَةِ وَ الْكَرَّةِ

*فلم تلتفتوا إليه و لا عرجتم عليه فالفرار نفسه موجب للوم و دعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس أعظم لَوْمًا بتخلفكم عنها

(فَأَثَٰبَكُمۡ)جازاكم على فعلكم

(غَمَّۢا)يُتبع(بِغَمٍّ):-

1-غم بفوات النصر و فوات الغنيمة و غم بانهزامكم حين علاهم المشركون فوق الجبل لما أصيب المسلمون بالقتل و الجراح و فوات الغنيمة فاغتموا و حزنوا لذلك

2-و غم أنساكم كل غم و هو سماعكم أن محمدا ﷺقد قتل.

و لكن الله -بلطفه و حسن نظره لعباده-جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيرا لهم

*فلما انكشف الغم الاخير انكشف معه الغم الأول

(لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ)من النصر و الظفر

(وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ)من الهزيمة و القتل و الجراح

إذا تحققتم أن الرسول ﷺلم يقتل هانت عليكم تلك المصيبات و اغتبطتم بوجوده المسلى عن كل مصيبة و محنة فلله ما فى ضمن البلايا و المحن من الأسرار و الحكم

و كل هذا صادر عن علمه و كمال خبرته بأعمالكم و ظواهركم و بواطنكم و لهذا قال:-

(وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ)و يحتمل أن معنى قوله:(لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم)

يعنى أنه قدَّر ذلك الغم و المصيبة عليكم للكى:-

1- تتوطن نفوسكم 2-و تمرنوا على الصبر على المصيبات 3-و يخف عليكم تحمل المشقات153

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ
يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ
قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ
وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى
لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

(ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ)الذى أصابكم(أَمَنَةً نُّعَاسًا)النعاس:-استرخاء يصيب الجسم قبل النوم
(يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ)أَهْلَ الْإيمَانِ وَ الْيَقِينِ وَ الثَّبَاتِ وَ التَّوَكُّلِ الصَّادِقِ وَ هُمُ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ و يُنْجِز لَهُ مَأْمُولَهُ ليس لهم هم إلا:-
1- إقامة دين الله 2-و رضا الله و رسوله 3-و مصلحة إخوانهم المسلمين.

*يَقُولُ تَعَالَى مُمْتَنا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ و الأمَنَة وَ هُوَ النُّعَاسُ الَّذِى غَشِيَهُمْ وَ هُمْ مشتملون السِّلَاحِ فِي حَالِ هَمِّهم و غَمِّهم وَ النُّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ:(إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ)الأنفال: ١١

*وَ قَالَ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّد عبد الرحمن ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:-عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ:-
النُّعَاسُ فِي الْقِتَالِ مِنَ اللَّهِ وَ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ.

*البخارى4562 - عن أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه قَالَ:-غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَ نَحْنُ فِي مَصَافِّنَا(جمع مصف وهو الموقف)يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ:-
فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يدِ ى وَ آخُذُهُ وَ يَسْقُطُ وَ آخُذُهُ "

*الصحيح المسند من أسباب النزول:الترمذى3007-عَنْ أَبِي طَلْحَةَ رضي الله عنه قَالَ:-
«رَفَعْتُ رَأْسِى يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ و مَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النُّعَاسِ»
فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا}[آل عمران: 154]

*و لا شك أن هذا رحمة بهم و إحسان و تثبيت لقلوبهم و زيادة طمأنينة لأن الخائف لا يأتيه النعاس لما في قلبه من الخوف فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

*و أما الطائفة الأخرى الذين (وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ)لَا يَغْشَاهُمُ النُّعَاسُ مِنَ الْقَلَقِ وَ الْجَزَعِ وَ الْخَوْفِ فليس لهم هم في غيرها لنفاقهم أو ضعف إيمانهم فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم

(يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ)

*كقوله (بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا) الفتح: ١٢

وَ هَكَذَا هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةِ أنَّها الْفَيْصَلَةُ وَ أَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ و أهلُه

*هَذَا شَأْنُ أَهْلِ الرَّيْبِ وَ الشَّكِّ إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الظُّنُونُ الشَّنِيعَةُ.

(يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ)أى النصر و الظهور (مِن شَيۡءٖۗ) و هذا استفهام إنكارى

ف:-1-أساءوا الظن بربهم و بدينه و نبيه2-و ظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله 3-و أن هذه الهزيمة هى الفيصلة و القاضية على دين الله

قال الله في جوابهم: (قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ)

*الأمــــــــر يشمل :-1-الأمر القدرى 2-و الأمر الشرعى

فجميع الأشياء بقضاء الله و قدره و عاقبة النصر و الظفر لأوليائه و أهل طاعته و إن جرى عليهم ما جرى.

(يُخۡفُونَ)يعنى المنافقين (فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ)

*ثم بين الأمر الذى يخفونه و يُسِرُّونَهَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فقال:-

(يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا)فى هذه الواقعة(مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ)رأى و مشورة

(مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ)

و هذا :-1-إنكـار منهم و تكذيب بقدر الله 3-و تسفيـه منهم لرأى رسول الله ﷺو رأى أصحابه

3-و تزكية منهم لأنفسهم

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-و أورده بن كثير فى تفسيره أيضا:-أخرج ابن راهوية فى المطالب العالية:- قال الزبير :-لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺيوم أحد حين اشتد علينا الخوف و أُرسل علينا النوم فما منا أحد إلا و ذقنه -أو قال ذقنه- فى صدره

فو الله إني لأسمع كالحُلْمِ قول مُعَتِّب بن قُشَيْر {لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}

فحفظتها فأنزل الله تبارك و تعالى فى ذلك{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا}-إلى قوله-{مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}-لقول مُعَتِّب بن قُشَيْر قال {لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ}حتى بلغ{عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}

*فرد الله عليهم بقوله:(قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ)التى هى أبعد شيء عن مظان القتل

*هَذَا قَدَرٌ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَ حُكْمٌ حَتْمٌ لَا يُحَادُ عَنْهُ وَ لَا مَنَاصَ مِنْهُ.

(لَبَرَزَ)لخرج من المدينة ظاهرين ليلقوا مصارعهم هناك.

(ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ)يريد كتب فى كتاب المقادير أى: اللوح المحفوظ.

(إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ)جمع مضجع و هو مكان النوم و الاضطجاع و المراد المكان الذي صرعوا فى قتلى.

*فالأسباب – و إن عظمت– إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر و القضاء فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا

بل لا بد أن يُمْضِي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت و الحياة

(وَلِيَبۡتَلِيَ)يختبر(ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ)من نفاق و إيمان و ضعف إيمان

(وَلِيُمَحِّصَ)يميز و هو إظهار شيء من شيء كـــ :-1-إظهار الإيمان من النفاق 2-و الحب من الكره.

(مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ)من وساوس الشيطان و ما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة.

(وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ)بما فيها و ما أكنته فاقتضى علمه و حكمته أن:–

قدر من الأسباب ما به تظهر مخبآت الصدور و سرائر الأمور154ثم قال تعالى: –

(إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ)

يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم « أحد »و ما الذي أوجب لهم الفرار:–

1–و أنه من تسويل الشيطان 2–و أنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم.

*✡فهم الذين أدخلوه على أنفسهم و مكنوه بما فعلوا من المعاصى لأنها مركبه و مدخله

فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان قال تعالى:

(إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ) الحجر: ٤٢

(وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ)

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذة (الفرار)و إلا فلو واخذهم لاستأصلهم.

(إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ)للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة و الاستغفارو المصائب المكفرة

(حَلِيمٌ)لا يعاجل من عصاه بل:– 1–يستأنى به 2–و يدعوه إلى الإنابة إليه و الإقبال عليه.

*ثم إن تاب و أناب :–1–قَبِلَ منه 2–و صَّيره كأنه لم يَجْرِ منه ذنب و لم يصدر منه عيب

فلله الحمد على إحسانه.

*أحمد 490 - عَنْ شَقِيقٍ قَالَ: لَقِيَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ

فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ:-مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَفَوْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ:-

1- أَبْلِغْهُ أَنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنِ - قَالَ عَاصِمٌ:- يَقُولُ يَوْمَ أُحُدٍ -

2-وَ لَمْ أَتَخَلَّفْ يَوْمَ بَدْرٍ

3-وَ لَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ

قَالَ:- فَانْطَلَقَ فَخَبَّرَ ذَلِكَ عُثْمَانَ قَالَ: فَقَالَ:-

1-أَمَّا قَوْلُهُ إِنِّي لَمْ أَفِرَّ يَوْمَ عَيْنَيْنَ فَكَيْفَ يُعَيِّرُنِي بِذَنْبٍ وَ قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: -

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾[آل عمران: 155]

2-وَ أَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي تَخَلَّفْتُ يَوْمَ بَدْرٍ:-فَإِنِّي كُنْتُ أُمَرِّضُ رُقَيَّةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى مَاتَتْ «وَ قَدْ ضَرَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَهْمِي وَ مَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَهْمِهِ فَقَدْ شَهِدَ»

3-وَ أَمَّا قَوْلُهُ: إِنِّي لَمْ أَتْرُكْ سُنَّةَ عُمَرَ: -فَإِنِّي لَا أُطِيقُهَا وَ لا هُوَ فَائِتِهِ فَحَدِّثْهُ بِذَلِكَ 155

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم و لا بقضائه و قدره من المنافقين و غيرهم. ينهاهم عن مشابهتهم فى كل شيء و فى هذا الأمر الخاص

(وَقَالُواْ)و هو أنهم يقولون (لِإِخۡوَٰنِهِمۡ)فى الدين أو فى النسب:–

(إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ)سافروا للتجارة

(أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى)غزاة ثم جرى عليهم قتل أو موت يعارضون القدر و يقولون:–

(لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا)فى البلد(مَا مَاتُواْ)فى السفر

(وَمَا قُتِلُواْ)فى الغزو(لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ)

خَلَقَ هَذَا الِاعْتِقَادَ فِي نُفُوسِهِمْ لِيَزْدَادُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتِهِمْ و قتْلهم

*و هذا كذب منهم فقد قال تعالى:–(قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) آل عمران: ١٥٤

و لكن هذا التكذيب لم يفدهم إلا أن الله يجعل هذا القول و هذه العقيدة حسرة فى قلوبهم فتزداد مصيبتهم

و أما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله فيؤمنون و يسلمون فـــــــــ:–

1–يهدى الله قلوبهم و يثبتها

2–و يخفف بذلك عنهم المصيبة.

الترغيب فى الجهاد 157-158

قال الله ردا عليهم:–(وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ)أى: هو المنفرد بذلك فلا يغنى حذر عن قدر.

(وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ)فيجازيكم بأعمالكم و تكذيبكم 156

*ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيله أو الموت فيه ليس فيه نقص و لا محذور و إنما هو مما ينبغى أن يتنافس فيه المتنافسون

(وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ)لأنه سبب مفض و موصل إلى:–

1–(لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ)2–(وَرَحۡمَةٌ)فتفوزون بجنات النعيم

و ذلك (خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)يجمع أهل الدنيا من دنياهم157

وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ
لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ
ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ
وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾
لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم
مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾

(وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ)و أن الخلق أيضا إذا ماتوا أو قتلوا بأى حالة كانت

صفات النبى ﷺ 159-164

(لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ)فإنما مرجعهم إلى الله و مآلهم إليه

فيجازى كلا بعمله فأين الفرار إلا إلى الله و ما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله ؟ ﴿١٥٨﴾

(فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ)لك و لأصحابك منَّ الله عليك (لِنتَ لَهُمۡۖ)كنت رفيقًا بهم

1–ألنت لهم جانبك

2–و خفضت لهم جناحك

3–و ترفقت عليهم

4–و حسنت لهم خلقك فاجتمعوا عليك و أحبوك و امتثلوا أمرك 159

(وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا)سيئ الخلق

(غَلِيظَ)قاسى(ٱلۡقَلۡبِ)

*البخارى 2125 -عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا
قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ ؟قَالَ:-أَجَلْ وَ اللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ
فِي الْقُرْآنِ:{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: 45] وَ حِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِى وَ رَسُولِى
سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَ لاَ غَلِيظٍ وَ لاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ وَ لاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ
وَ لَكِنْ يَعْفُو وَ يَغْفِرُ

(لَٱنفَضُّواْ)لانْصَرَفَ أصحابك (مِنۡ حَوۡلِكَۖ)

*لأن هذا ينفرهم و يبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.

*فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين تجذب الناس إلى دين الله و ترغبهم فيه مع ما لصاحبه من المدح و الثواب الخاص

*و الأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين و تبغضهم إليه مع ما لصاحبها من الذم و العقاب الخاص

*فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول فكيف بغيره؟!

*أليس من أوجب الواجبات و أهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة و معاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ من اللين و حسن الخلق و التأليف امتثالا لأمر الله و جذبا لعباد الله لدين الله.

(فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ)فلا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة «أُحد»

*ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ

(وَٱسۡتَغۡفِرۡ)و اسأل الله-أيها النبى-أن يغفر(لَهُمۡ)ما قصروا فيه حق الله

*فيجمع بين:-1-العفو 2-و الإحسان.

(وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ)التى تحتاج إلى استشارة و نظر و فكر

*فإن فى الاستشارة من الفوائد و المصالح الدينية و الدنيوية ما لا يمكن حصــــــــره:-

1-أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

2-أن فيها تسميحا لخواطرهم و إزالة لما يصير فى القلوب عند الحوادث

*فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأى و الفضل و شاورهم فى حادثة من الحوادث:-

1-اطمأنت نفوسهم و أحبوه

2-و علموا أنه ليس بمستبد عليهم

3-و إنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع ←

فــــبذلوا جهدهم و مقدورهم فى طاعته

لـــــــعلمهم بسعيه فى مصالح العموم

*بخلاف من ليس كذلك فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة و لا يطيعونه و إن أطاعوه فطاعة غير تامة.

3-أن في الاستشارة تنور الأفكار بسبب إعمالها فيما وضعت له فصار فى ذلك زيادة للعقول.

4-ما تنتجه الاستشارة من الرأى المصيب فإن المشاور لا يكاد يخطئ فى فعله و إن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم فإذا كان الله يقول لرسوله- ﷺ-و هو أكمل الناس عقلا و أغزرهم علما و أفضلهم رأيا-

(وشاورهم فى الأمر)فكيف بغيره؟!

*و لِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺيُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ إِذَا حَدَث تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ لِيَكُونُوا فِيمَا يَفْعَلُونَهُ أَنْشَطَ لَهُمْ:-

1- كَمَا شَاوَرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْعِيرِ :-

*السنن الكبرى للنسائى 8290 -عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ: -

«سَارَ إِلَى بَدْرٍ فَاسْتَشَارَ الْمُسْلِمِينَ وَ أَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ اسْتَشَارَهُمْ فَأَشَارَ عَلَيْهِ عُمَرُ»

فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ:-يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إِيَّاكُمْ يُرِيدُ رَسُولُ اللهِ ﷺقَالَ:-

إِذًا لَا نَقُولُ مَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى:- فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا

وَ الَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ ضَرَبْتَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ لَاتَّبَعْنَاكَ "

2-وَ شَاوَرَهُمْ -أَيْضًا-أَيْنَ يَكُونُ الْمَنْزِلُ؟حَتَّى أشار المنذر بن عمرو المعتق ليموتَ بِالتَّقَدُّمِ إِلَى أَمَامِ الْقَوْمِ

3-وَ شَاوَرَهُمْ فِي أُحُدٍ فِي أَنْ يَقْعُدَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ يَخْرُجَ إِلَى الْعَدُوِّ فَأَشَارَ جمهُورُهم بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ.

4-وَ شَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي مُصَالَحَةِ الْأَحْزَابِ بِثُلُثِ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ عَامَئِذٍ فَأَبَى عَلَيْهِ ذَلِكَ السَّعْدَان:-
سعدُ بْنُ مُعَاذٍ و سعدُ بْنُ عُبَادةفَتَرَكَ ذَلِكَ.

5-وَ شَاوَرَهُمْ يومَ الحُدَيبية فِي أَنْ يَمِيلَ عَلَى ذَرَارِي الْمُشْرِكِينَ .فَقَالَ لَهُ الصديق:-
إنا لم نجىء لِقِتَالِ أَحَدٍ وَ إِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ فَأَجَابَهُ إِلَى مَا قَالَ.

6-وَ قَالَ عليه السلام فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ:-

*مسلم (2770) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:-لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِى ذُكِرَ وَ مَا عَلِمْتُ بِهِ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ اللهَ وَ أَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أُنَاسٍ أَبَنُوا أَهْلِى (باء مفتوحة مخففة و مشددة رووه هنا بالوجهين التخفيف أشهر والأبن بفتح الهمزة التهمة يقال أبنة يأبنه و يأبنه بضم الباء وكسرها إذا اتهمه و رماه بخلة سوء فهو مأبون قالوا و هو مشتق من الأبن بضم الهمزة و فتح الباء وهى العقد في القسى تفسدها وتعاب بها)

وَ ايْمُ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِى مِنْ سُوءٍ قَطُّ وَ أَبَنُوهُمْ بِمَنْ وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ وَ لَا دَخَلَ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَ أَنَا حَاضِرٌ وَ لَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِى»

وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ وَ فِيهِ:-وَ لَقَدْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺبَيْتِى فَسَأَلَ جَارِيَتِى فَقَالَتْ:-

وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلَ عَجِينَهَا أَوْ قَالَتْ خَمِيرَهَا-شَكَّ هِشَامٌ -فَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:-اصْدُقِى رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى أَسْقَطُوا لَهَا بِهِ(هكذا هو في جميع نسخ بلادنا أسقطوا لها به بالباء التي هي حرف الجر و بهاء ضمير المذكر و كذا نقله القاضي و معناه صرحوا لها بالأمر و لهذا قالت سبحان الله استعظاما لذلك و قيل أتوا بسقط من القول في سؤالها و انتهارها يقال أسقط و سقط في كلامه إذا أتى فيه بساقط و قيل إذا أخطأ فيه)

فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ وَ اللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تِبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ(هى القطعة الخالصة)

وَ قَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِى قِيلَ لَهُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَ اللهِ مَا كَشَفْتُ عَنْ كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَ قُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللهِ وَ فِيهِ أَيْضًا مِنَ الزِّيَادَةِ: -

وَ كَانَ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا بِهِ مِسْطَحٌ وَ حَمْنَةُ وَ حَسَّانُ وَ أَمَّا الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ(يستخرجه بالبحث و المسئلة ثم يفشيه و يشيعه و يحركه و لا يدعه يخمد)وَ يَجْمَعُهُ وَ هُوَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ وَ حَمْنَةُ

7-و استشار عليا و أسامة:-

*البخارى..فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْىُ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ فَأَمَّا أُسَامَةُ رضي الله عنه:-فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِى يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ لَهُمْ فَقَالَ أُسَامَةُ:-

أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ لاَ نَعْلَمُ وَ اللَّهِ إِلَّا خَيْرًا
-وَ أَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه:-فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ النِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَ سَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ
7-فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُهُمْ فِي الْحُرُوبِ وَ نَحْوِهَا

ثم قال تعالى:(فَإِذَا عَزَمْتَ)على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه إن كان يحتاج إلى استشارة

(فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ)اعتمد على حول الله و قوته متبرئا من حولك و قوتك

(إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ)عليه اللاجئين إليه.

(إِن يَنصُرْكُمُ)يمددكم (ٱللَّهُ)بنصره و معونته

(فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ)فلا أحد يستطيع أن يغلبكم

فلو اجتمع عليكم من فى أقطارها و ما عندهم من العَدد و العُدد لأن الله لا مغالب له

و قد قهر العباد و أخذ بنواصيهم فلا تتحرك دابة إلا بإذنه و لا تسكن إلا بإذنه.

(وَإِن يَخْذُلْكُمْ)و يكلكم إلى أنفسكم

(فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ)فلا بد أن تنخذلوا و لو أعانكم جميع الخلق.

و فى ضمن ذلك:-1-الأمر بالاستنصار بالله و الاعتماد عليه 2-و البراءة من الحول و القوة

و لهذا قال: (وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ)

بتقديم المعمول يؤذن بالحصر أى:-على الله توكلوا لا على غيره لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده

*فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود

*و الاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه بل ضار.

و فى هذه الآية :-الأمر بالتوكل على الله وحده و أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله(١٦٠)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-الكبير للطبرانى12684-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:-
بَعَثَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ جَيْشًا فَرُدَّتْ رَايَتُهُ ثُمَّ بَعَثَ فَرُدَّتْ بِغُلُولِ رَأْسِ غَزَالٍ مِنْ ذَهَبٍ»
فَنَزَلَتْ: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ} [آل عمران: 161]

سبب آخر للنزول:الكبير للطبرانى11174-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ}
[آل عمران: 161] «وَ كَيْفَ لَا يَكُونُ لَهُ أَنْ يَغُلَّ وَ لَهُ أَنْ يُقْتَلَ» قَالَ اللَّهُ: {وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ} [آل عمران: 112]
«وَ لَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ اتَّهَمُوا النَّبِيَّ ﷺ فِي شَيْءٍ»فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ} [آل عمران: 161]

الغلول هو:- الكتمان من الغنيمة و الخيانة في كل مال يتولاه الإنسان و هو محرم إجماعا بل هو من الكبائر كما تدل عليه هذه الآية الكريمة و غيرها من النصوص

*فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي و لا يليق بنبى أن يغل لأن الغلول – كما علمت– من أعظم الذنوب و أشر العيوب. و قد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم و يقدح فيهم و جعلهم أفضل العالمين أخلاقا و أطهرهم نفوسا و أزكاهم و أطيبهم و نزههم عن كل عيب و جعلهم محل رسالته و معدن حكمته

(ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ)الأنعام: ١٢٤

فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم و لا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم لأن معرفته بنبوتهم مستلزم

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ)يمتنع ذلك و يستحيل على من اختارهم الله لنبوته.ثم ذكر الوعيد على من غل فقال:–

(وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ)على ظهره حيوانا كان أو متاعا أو غير ذلك ليعذب به(يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ)و ليُفضَح به

(ثُمَّ تُوَفَّىٰ)أجر أو وزر (كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ)على مقدار كسبه

(وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ)لا يزاد فى سيئاتهم و لا يهضمون شيئا من حسناتهم و تأمل حسن هذا الاحتراز فى هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال و أنه يأتي يوم القيامة بما غله و لما أراد أن يذكر توفيته و جزاءه و كان الاقتصار على الغال يوهم – بالمفهوم– أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون – أتى بلفظ عام جامع له و لغيره.

*و قد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا في أحاديث متعددة:-

*البخارى 2597 - عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ:-

اسْتَعْمَلَ(وظف)النَّبِيُّ ﷺرَجُلًا مِنَ الأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأُتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ(الزكاة) فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ:-

هَذَا لَكُمْ(ما جمعته زكاة تأخذونه لتعطوه الفقراء المستحقين)وَ هَذَا أُهْدِيَ لِي قَالَ:-

«فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لاَ؟

وَ الَّذِي نَفْسِى بِيَدِهِ لَايَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ(من المال الذى يهدى له بسبب عمله ووظيفته)شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ(حشر مصاحبا له)يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ

1-إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ(صوت ذوات الخف)

2-أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ(صوت البقر)

3-أَوْ شَاةً تَيْعَرُ(من اليعار و هو صوت الشاة)»

ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ(بياض ما تحت الإبط و سمى عفرة لأنه بياض غير ناصع كأنه معفر بالتراب):-

«اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» ثَلاَثًا(كررها ثلاث مرات)

*مسلم(1833) عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ قَالَ:سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِﷺيَقُولُ:-

«مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا(الإبرة) فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ

قَالَ: «وَ مَا لَكَ ؟ » قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ: كَذَا وَ كَذَا قَالَ: «وَ أَنَا أَقُولُهُ الْآنَ مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَ كَثِيرِهِ فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَ مَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى»

*مسلم (114)عن عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه

قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ فُلَانٌ شَهِيدٌ حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فَقَالُوا: فُلَانٌ شَهِيدٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُه فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ

(البردة كساء مخطط وهى الشملة والنمرة و قال أبو عبيد هو كساء أسود فيه صور وجمعة برد و قوله فى بردة أى من أجلها و بسببها)غَلَّهَا

(قال أبو عبيد الغلول هو الخيانة فى الغنيمة خاصة وقال غيره هي الخيانة فى كل شىء ويقال منه غل يغل) - أَوْ عَبَاءَةٍ »

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«يَا ابْنَ الْخَطَّابِ اذْهَبْ فَنَادِ فِي النَّاسِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ»

قَالَ: فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ: أَلَا إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ(١٦١)

(أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ)يخبر تعالى أنه لا يستوى من كان قصده(رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ)و العمل على ما يرضيه

ليس(كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ)ممن هو مكب على المعاصى مسخط لربه هذان لا يستويان فى حكم الله و حكمة الله و فى فطر عباد الله.

(أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ) السجدة:١٨ كقوله(أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ) الرعد: ١٩

(وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ)(١٦٢)

و لهذا قال هنا:(هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ)كل هؤلاء متفاوتون فى درجاتهم و منازلهم بحسب تفاوتهم فى أعمالهم

*فالمتبعون لرضوان الله يسعون فى:–

نيل الدرجات العاليات و المنازل و الغرفات فيعطيهم الله من فضله و جوده على قدر أعمالهم

*و المتبعون لمساخط الله يسعون فى:–النزول فى الدركات إلى أسفل سافلين كل على حسب عمله

*كقوله(وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ) الأنعام: ١٣٢

(وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ)

و الله تعالى بصير بأعمالهم لا يخفى عليه منها شيء بل قد علمها و أثبتها في اللوح المحفوظ

و وكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها و يحفظوها و يضبطونها(١٦٣)

*هذه المنة التى امتن الله بها على عباده أكبر النعم بل أصلها و هى الامتنان عليهم بهذا الرسولﷺ الذى:–

1–أنقذهم الله به من الضلالة

2–و عصمهم به من الهلكة فقال:–(لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ)

يعرفون نسبه و حاله و لسانه من قومهم و قبيلتهم ناصحا لهم مشفقا عليهم

كقوله(يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ)الأنعام: ١٣٠

(يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ)أى القرآن فيعلمهم ألفاظه و معانيه

(وَيُزَكِّيهِمۡ)من الشرك و المعاصى و الرذائل و سائر مساوئ الأخلاق.

*يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ لتزكُوَ نُفُوسُهُمْ وَ تَطْهُرَ مِنَ الدَّنَسِ و الخَبَث الَّذِى كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شِرْكِهِمْ وَ جَاهِلِيَّتِهِمْ

و (وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ)

1–إما جنس الكتاب الذي هو القرآن فيكون قوله:–(يتلو عليهم آياته):–المراد به الآيات الكونية

2–أو المراد بالكتاب–هنا–الكتابة فيكون قد امتن عليهم بتعليم الكتاب و الكتابة التى بها تدرك العلوم و تحفظ

(وَٱلْحِكْمَةَ) هى:–

1–السنة التى هى شقيقة القرآن

2–أو وضع الأشياء مواضعها

3–و معرفة أسرار الشريعة.

*فجمع لهم بين:–

1–تعليم الأحكام

2-و ما به تنفذ الأحكام

3-و ما به تدرك فوائدها و ثمراتها

←ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين و كانوا من العلماء الربانيين

(وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ)بعثة هذا الرسول

(لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم و لا ما يزكى النفوس و يطهرها

بل ما زين لهم جهلهم فعلوه و لو ناقض ذلك عقول العالمين(١٦٤)

*الصحيح المسند من أسباب النزول: أحمد 208 - عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ﷛ قَالَ:-

لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ: نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺإِلَى أَصْحَابِهِ وَ هُمْ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَ نَيِّفٌ وَ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَإِذَا هُمْ أَلْفٌ وَ زِيَادَةٌ فَاسْتَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺالْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ وَ عَلَيْهِ رِدَاؤُهُ و إِزَارُهُ ثُمَّ قَالَ:-«اللَّهُمَّ أَيْنَ مَا وَعَدْتَنِى؟ اللَّهُمَّ أَنْجِزْ مَا وَعَدْتَنِى اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا»

قَالَ: فَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَ يَدْعُوهُ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَرَدَّاهُ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: 9]

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُئِذٍ وَ الْتَقَوْا فَهَزَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْرِكِينَ فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا وَ أُسِرَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا -فَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺأَبَا بَكْرٍ وَعَلِيًّا و عُمَرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَؤُلَاءِ بَنُو الْعَمِّ وَ الْعَشِيرَةُ و الْإِخْوَانُ فَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمُ الْفِدْيَةَ فَيَكُونُ مَا أَخَذْنَا مِنْهُمْ قُوَّةً لَنَا عَلَى الْكُفَّارِ وَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ فَيَكُونُونَ لَنَا عَضُدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قَالَ: قُلْتُ: وَ اللَّهِ مَا أَرَى مَا رَأَى أَبُو بَكْرٍ

وَ لَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَنِي مِنْ فُلَانٍ - قَرِيبًا لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ وَ تُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ
وَ تُمَكِّنَ حَمْزَةَ مِنْ فُلَانٍ أَخِيهِ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا هَوَادَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ
هَؤُلَاءِ صَنَادِيدُهُمْ وَ أَئِمَّتُهُمْ وَ قَادَتُهُمْ فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَ لَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ فَأَخَذَ مِنْهُمُ الْفِدَاءَ

فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ عُمَرُ غَدَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ وَ أَبُو بَكْرٍ وَ إِذَا هُمَا يَبْكِيَانِ
فَقُلْتُ:يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مَاذَا يُبْكِيكَ أَنْتَ وَ صَاحِبَكَ؟
فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَ إِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«الَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنَ الْفِدَاءِ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»-لِشَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ-
وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: 67]إِلَى قَوْلِهِ
{لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ} [الأنفال: 68] مِنَ الْفِدَاءِ ثُمَّ أُحِلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمُ
فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عُوقِبُوا بِمَا صَنَعُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ
1-فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ
2-وَ فَرَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺعَنِ النَّبِيِّ ﷺ
3-وَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ
4-وَ هُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ وَ سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ
و أَنْزَلَ اللَّهُ{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءَ

تابع أسباب هزيمة المسلمين فى أحد و منزلة الشهداء 165-174

(أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ)

هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم يوم « أحد » و قتل منهم نحو سبعين

فقال الله: إنكم (قَدۡ أَصَبۡتُم)من المشركين

(مِّثۡلَيۡهَا)يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم و أسرتم سبعين فليهن الأمر و لتخف المصيبة عليكم

مع أنكم لا تستوون أنتم و هم فإن قتلاكم في الجنة و قتلاهم فى النار.

(قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ)من أين أصابنا ما أصابنا و هزمنا؟

(قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ)بأخذكم الفداء يوم بدر

*حين تنازعتم و عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون فعودوا على أنفسكم باللوم و احذروا من الأسباب المردية.

(إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ)

فإياكم و سوء الظن بالله فإنه قادر على نصركم و لكن له أتم الحكمة فى ابتلائكم و مصيبتكم.

(ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ) محمد: ٤ ٢٦٥

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ
تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ
مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾
ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾
فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾
ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا
وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

ثم أخبر(وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ)جمع المسلمين و جمع المشركين فى « أحد » من القتل و الهزيمة

(فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ)و قضائه و قدره لا مرد له و لا بد من وقوعه.

و الأمر القدرى:-إذا نَفَذَ لم يبق إلا التسليم له و أنه قَدَّرَه لحكم عظيمة و فوائد جسيمة

(وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)الذين صبروا و ثبتوا و لم يتزلزلوا166

(وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ)و أنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال

*يعني بِذَلِكَ أَصْحَابَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَاتَّبَعَهُمْ مَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيَابِ وَ الْقِتَالِ و الْمُسَاعَدَةِ

(وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)ذبًا عن دين الله و حماية له و طلبا لمرضاة الله

(أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ)عن محارمكم و بلدكم إن لم يكن لكم نية صالحة فأبوا ذلك

* كَثِّرُوا سَوَادَ المسلمين و قيل ادفعوا بالدعاء و قيل رابطوا

و اعتذروا بأن (قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا)لو نعلم أنكم يصير بينكم و بينهم قتال(لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ)و هم كذبة فى هذا.

1–قد علموا و تيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد مُلئوا من الْحَنَقِ و الغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم

2–و أنهم قد بذلوا أموالهم و جمعوا ما يقدرون عليه من الرجال و العدد

3–و أقبلوا في جيش عظيم قاصدين المؤمنين فى بلدهم متحرقين على قتالهم

فمن كانت هذه حالهم كيف يتصور أنهم لا يصير بينهم و بين المؤمنين قتال؟

خصوصا و قد خرج المسلمون من المدينة و برزوا لهم هذا من المستحيل و لكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين قال تعالى:–

(هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ)فى تلك الحال التى تركوا فيها الخروج مع المؤمنين

(يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ)

و هذه خاصة المنافقين يظهرون بكلامهم و فعالهم ما يبطنون ضده فى قلوبهم و سرائرهم.

و منه قولهم:–(لو نعلم قتالا لاتبعناكم)فإنهم قد علموا وقوع القتال.

و يستدل بهذه الآية على قاعدة:–

« ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما و فعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما »

لأن المنافقين أُمروا أن يقاتلوا للدين فإن لم يفعلوا فللمدافعةِ عن العيالِ و الأوطانِ

(وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ)فيبديه لعباده المؤمنين و يعاقبهم عليه167

ثم قال تعالى: (ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ)أى: جمعوا بين :–

1–التخلف عن الجهاد 2–و بين الاعتراض و التكذيب بقضاء الله و قدره

قال الله ردًّا عليهم: (قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ)ادفعوا (عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ)

*إِنْ كَانَ القُعود يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَ الْمَوْتِ فَيَنْبَغِي أَنَّكُمْ لَا تَمُوتُونَ وَ الْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إليكم و لو كنتم فِي بُرُوجٍ مُشَيّدة فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

–إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا لا تقدرون على ذلك و لا تستطيعونه.

*و فى هذه الآيات دليل على:–

1–أن العبد قد يكون فيه خَصْلَةُ كفرٍ و خصلة إيمان 2–و قد يكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الأخرى.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:أحمد 2388 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵁قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا وَ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَ مَأْكَلِهِمْ وَ حُسْنَ مَقِيلِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا لِئَلا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَ لا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:-أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ"فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلاءِ الايَاتِ عَلَى رَسُولِهِ:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا}
[آل عمران: 169]

* الترمذى 3010 -عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ﵁ يَقُولُ:لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَقَالَ لِي:-
«يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا»؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي وَ تَرَكَ عِيَالا وَ دَيْنًا

قَالَ: «أَفلا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ»؟ قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.
قَالَ:مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَ أَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا.
فَقَالَ: يَا عَبْدِى تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِى فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً.
قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّى أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ "قَالَ: وَ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ:
{وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا}[آل عمران: 169].

*قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺالَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺإِلَى أَهْلِ بِئْرِ مَعُونَةَ
قَالَ:- لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ. وَ عَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيلِ الْجَعْفَرِيُّ
فَخَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَوْا غَارًا مُشْرِفا عَلَى الْمَاءِ فَقَعَدُوا فِيهِ
ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يُبَلِّغ رِسَالَة رَسُولِ اللَّهِ ﷺأَهْلَ هَذَا الْمَاءِ؟
فَقَالَ-أراه ابْنَ ملْحان الْأَنْصَارِيَّ:-أَنَا أُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.
فخَرَجَ حَتَّى أَتَى حَيًّا مِنْهُمْ فَاخْتَبَأَ أَمَامَ الْبُيُوتِ ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ بِئْرِ مَعُونة إِنِّي رسول رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ
إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ.
فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُل مِنْ كَسْرِ الْبَيْتِ بِرُمْح فَضَرَبَ بِهِ فِي جَنْبِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ.
فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ فُزْتُ وَ رَبِّ الْكَعْبَةِ.فَاتَّبَعُوا أَثَرَهُ حَتَّى أَتَوْا أَصْحَابَهُ فِي الْغَارِ فَقَتَلَهُمْ أَجْمَعِينَ عامرُ بْنُ الطُّفَيْلِ.

*مسلم(1877) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-
«مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا و لَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا إِلَّا الشَّهِيدُ
فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»

*السنن الكبرى للنسائى: 2211 - عن كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺقَالَ:
«إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ(يأكل)فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»

*قال بن كثير في تعليقه على هذا الحديث:

وَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ:-"إِنَّ روحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ".
وَ أَمَّا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فَكَمَا تَقَدَّمَ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ فَهِيَ كَالْكَوَاكِبِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَرْوَاحِ عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ
فَإِنَّهَا تَطِيرُ بِأَنْفُسِهَا فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ

*هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء و كرامتهم و ما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه

و في ضمنها :–

1–تسلية الأحياء عن قتلاهم و تعزيتهم 2–و تنشيطهم للقتال فى سبيل الله و التعرض للشهادة 168

(وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)فى جهاد أعداء الدين قاصدين بذلك إعلاء كلمة الله

(أَمۡوَٰتَۢا)لا يخطر ببالك و حسبانك أنهم ماتوا و فقدوا و ذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا و التمتع بزهرتها
الذي يحذر من فواته من جبن عن القتال و زهد فى الشهادة.

(بَلۡ)قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون.

فهم (أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ)يقتضي:– 1–علو درجتهم 2–و قربهم من ربهم

(يُرۡزَقُونَ)فى دار كرامته من أنواع النعيم الذى لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم

و مع هذا(فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَيۡهِمۡ)مغتبطين بذلك قد قرت به عيونهم و فرحت به نفوسهم و ذلك لحسنه و كثرته و عظمته و كمال اللذة فى الوصول إليه و عدم المنغص

*فجمع الله لهم بين:-

1- نعيم البدن بالرزق 2-و نعيم القلب و الروح بالفرح بما آتاهم من فضله:-فتم لهم النعيم و السرور

و جعلوا (وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ)يبشر بعضهم بعضا بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم و أنهم سينالون ما نالوا

(أَلَّا خَوۡفٌ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)يستبشرون بزوال المحذور عنهم و عن إخوانهم المستلزم كمال السرور

(أَلَّا خَوۡفٌ)و أن لا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمور الآخرة

(وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)على ما فاتهم من حظوظ الدنيا170

(يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ)يهنىء بعضهم بعضا بأعظم مهنأ به و هو:-نعمة ربهم و فضله و إحسانه

(وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)بل ينميه و يشكره و يزيده من فضله ما لا يصل إليه سعيهم.

و فى هذه الآيات:-

1-إثبات نعيم البرزخ 2-و أن الشهداء فى أعلى مكان عند ربهم و فيه تلاقى أرواح أهل الخير

3-و زيارة بعضهم بعضا 4-و تبشير بعضهم بعضا.

(ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ)لبُّوا (لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ)نداء الله و رسوله و خرجوا فى أعقاب المشركين إلى «حمراء الأسد» بعد هزيمتهم فى غزوة «أُحد»

(مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ)مع ما كان بهم من آلام و جراح و بذلوا غاية جهدهم و التزموا بهدى نبيهم

(لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ)للمحسنين(مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ)و المتقين(أَجۡرٌ)ثواب(عَظِيمٌ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول: الكبير للطبرانى

11632 -عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- وَ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً أُخْرَى: أَخْبَرَنِي عِكْرِمَةُ قَالَ:
لَمَّا انْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ وَ الْمُشْرِكُونَ عَنْ أَحَدٍ وَ بَلَغُوا الرَّوْحَاءَ قَالُوا:
لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمْ وَ لَا الْكواعِبَ أَرْدَفْتُمْ شَرٌّ مَا صَنَعْتُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺفَنَدَبَ النَّاسَ
فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ أَوْ بِئْرَ أَبِي عُيَيْنَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ}
وَ قَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ:مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا فَأَمَّ الْجَبَانُ فَرَجَعَ
وَ أَمَّا الشُّجَاعُ فَأَخَذَ أُهْبَةَ الْقِتَالِ وَ التِّجَارَةِ فَأَتَوْهُ فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا و تَسَوَّقُوا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ
{فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [آل عمران: 174]

*البخارى 4077 -عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ [آل عمران: 172]
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ:-
الزُّبَيْرُ وَ أَبُو بَكْرٍ لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺمَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ وَ انْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا
قَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ(خلفهم و عقبهم)»فَانْتَدَبَ(من قولهم ندبه لأمر فانتدب أي دعاه فأجاب)مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا قَالَ:-
كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَ الزُّبَيْرُ﴿١٧٢﴾

(ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ)و جاءهم من جاءهم و قال لهم:–(إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ)

و هموا باستئصالكم تخويفا لهم و ترهيبا(فَزَادَهُمۡ)فلم يزدهم ذلك إلا(إِيمَٰنٗا)بالله و اتكالا عليه.

(وَقَالُواْ حَسۡبُنَا)كافينا (ٱللَّهُ)كل ما أهمنا

(وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ)المفوض إليه تدبير عباده و القائم بمصالحهم.

*البخارى4563 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الوَكِيلُ
1-قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ 2-وَ قَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا:-
{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ} [آل عمران: 173] 173

﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾

كنتُ في العشرينَ من عُمُري يومَ تقدمَ لي الشاب الذي أحلم به: طالبُ علم عليه سِيَما الصلاحِ والاستقامةِ، ووافقتُ وقتها بعد استخارة واستشارة دون تقصٍّ واضح لأمور أخرى قد تَهُمُّ الناس عادة، ومضت الأيام وأنا أعيش فترة الخِطبة في ظل حلمٍ جميلٍ بالحياة في بيت طالب علم، إلى أن اقترب موعد الزواج، وتسامع الناس بالخبر في بلدتي الصغيرة، فتتابعت التحذيرات من الارتباط بجادٍّ متزمِّتٍ بعيد عن مباهج الحياة!.

اضطربتُ وحِرْتُ بين الثباتِ على المبدأ وتكملة المشوار، وبين الاستسلام

والتراجع، ومضتِ الأيام وأنا بين الحيرة والقلق والدموع، إلى أن شاء الله جل وعلا، وفي لحظة لا أنساها بعد صلاة الفجر جلستُ أنتظرُ الإشراق، وأخذت المصحف وتلوت من سورة آل عمران، حتى توقفت فيها على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[1] عمران ١٧٣، ولم أكن أعرف تفسيرها في ذلك الوقت ولا فيمن نزلت، ولكني شعرت أنها تخاطبني، فكررتها مرات أتدبرها، وبعدها اتخذتُ قراري بالاستمرار في ترتيبات الزواج وأنا أردد: حسبي الله ونعم الوكيل.

واليوم؛ وبعد مُضِيِّ خمسةٍ وعشرينَ عامًا على زواجي؛ أرى تتمةَ الآيةِ في حياتي: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾[2].

فَانقَلَبُوا بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤
إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥
وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي
ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ
١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩
وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ
سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠

التحذير من الشيطان و أولياؤه 175-179

(فَانقَلَبُوا)رجعوا(بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ)

و جاء الخبر المشركين أن الرسول و أصحابه قد خرجوا إليكم و ندم من تخلف منهم فألقى الله الرعب فى قلوبهم و استمروا راجعين إلى مكة و رجع المؤمنون بنعمة من الله و فضل

(وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ)بطاعتهم له و لرسوله(وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ)

*حيث مَنَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة و الاتكال على ربهم ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة

فبسبب إحسانهم:- بطاعة ربهم و تقواهم عن معصيته لهم أجر عظيم و هذا فضل الله عليهم174

ثم قال تعالى: (إِنَّمَا)المثبِّط(ذَٰلِكُمُ)لكم فى ذلك هو(ٱلشَّيۡطَٰنُ)جاءكم

(يُخَوِّفُ)يخوِّفكم(أَوۡلِيَآءَهُۥ)أنصاره أى: إن ترهيب من رُهِبَ من المشركين و قال:-

إنهم جمعوا لكم داع من دعاة الشيطان يخوف أولياءه الذين:-عُدِم إيمانهم أو ضَعُف.

(فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ)كقوله (أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ)الزمر: ٣٦

(قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ)الزمر: ٣٨ (فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا)النساء: ٧٦

أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان فإن نواصيهم بيد الله لا يتصرفون إلا بقدره

بل خافوا الله الذى ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

و فى هذه الآيـة :-

*وجوب الخوف من الله وحده و أنه من لوازم الإيمان فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله

و الخوف المحمود:–ما حجز العبد عن محارم الله175

*كان النبي ﷺحريصا على الخلق مجتهدا في هدايتهم و كان يحزن إذا لم يهتدوا قال الله تعالى:–

(وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ)من شدة رغبتهم فيه و حرصهم عليه

(فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ) فاطر: ٨

(إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ)فالله ناصر دينه و مؤيد رسوله و منفذ أمره من دونهم فلا تبالهم و لا تحفل بهم

إنما يضرون و يسعون في ضرر أنفسهم بـ:–

1–فوات الإيمان في الدنيا 2–و حصول العذاب الأليم في الأخرى

من:– 1–هوانهم على الله 2–و سقوطهم من عينه

(يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا)نصيبا(فِي ٱلْءَاخِرَةِ)من ثوابه

*خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له أولياءه و من أراد به خيرا:–عدلا منه و حكمة

لعلمه بأنهم:–1–غير زاكين على الهدى 2–و لا قابلين للرشاد

لــ:–1–فساد أخلاقهم 2–و سوء قصدهم.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)176

ثم أخبر (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ)اختاروا الكفر على الإيمان و رغبوا فيه رغبة من بذل ما يحب من المال في شراء ما يحب من السلع

(لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا)بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم و لهذا قال:–(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

و كيف يضرون الله شيئا و هم قد زهدوا أشد الزهد في الإيمان و رغبوا كل الرغبة بالكفر بالرحمن؟!

فالله غني عنهم و قد قيض لدينه من عباده الأبرار الأزكياء سواهم و أعد له – ممن ارتضاه لنصرته– أهل البصائر و العقول و ذوي الألباب من الرجال الفحول قال الله تعالى:

(قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) الإسراء: ١٠٧ 177

(وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ)أَطَلْنا أعمارهم و متعناهم بمُتع الدنيا يملى للظالم

*أي: و لا يظن الذين كفروا بربهم و نابذوا دينه و حاربوا رسوله أن:–

1–تَرْكنا إياهم في هذه الدنيا 2–و عدم استئصالنا لهم 3–و إملاءنا لهم(خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ)و محبة منا لهم.

كلا ليس الأمر كما زعموا و إنما ذلك:–1–لشر يريده الله بهم 2–و زيادة عذاب و عقوبة إلى عذابهم

*كقوله (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) المؤمنون

(لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا)حتى يزداد طغيانه و يترادف كفرانه

حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر فليحذر الظالمون من الإمهال و لا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

(وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ178)

(مَّا كَانَ)فى حكمة(ٱللَّهُ لِيَذَرَ)أن يترك(ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ)من:-الاختلاط و عدم التميز

(حَتَّىٰ يَمِيزَ)

1-(ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ)2-و المؤمن من المنافق 3-و الصادق من الكاذب.

*لَا بُد أَنْ يَعْقِدَ سَبَبًا مِنَ الْمِحْنَة

1-يَظْهَرُ فِيهِ وَلِيُّهُ وَ يَفْتَضِحُ فِيهِ عَدُوُّهُ

2-يُعرف بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ وَ الْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ. يَعْنِى بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ الَّذِى امْتَحَنَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ

فَظَهَرَ بِهِ:-

1-إِيمَانُهُمْ 2-وَ صَبْرُهُمْ 3-وَ جَلَدُهُمْ 4-وَ ثَبَاتُهُمْ 5-وَ طَـــاعَتُهُمْ لِلَّهِ وَ لِرَسُولِهِ ﷺ

وَ هَتَكَ بِهِ:- سِتْرَ الْمُنَافِقِينَ

فَظَهَرَ:-

1- مُخَالَفَتُهُمْ 2-و نُكُولهم عَنِ الْجِهَادِ 3-وَ خِيَانَتُهُمْ لِلَّهِ وَ لِرَسُولِهِ

وَ لِهَذَا قَالَ:{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}

قَالَ مُجَاهِدٌ: مَيَّزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ. وَ قَالَ قَتَادَةُ: مَيَّزَ بَيْنَهُمْ بِالْجِهَادِ وَ الْهِجْرَة.

(وَمَا كَانَ ٱللَّهُ)فى حكمته(لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ)الذى يعلمه من عباده

حَتَّى يُميز لَكُمُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ.

*فاقتضت حكمته الباهرة أن:-

1-يبتـلى عباده 2-و يفتنهـم بما به يتميز الخبيث من الطيب من أنواع:-الابتلاء و الامتحان

فـ:-1-أرسل الله رسله 2-و أمر بطاعتهم 3-و الانقياد لهم 4-و الإيمان بهم

و وعدهم على الإيمان و التقوى الأجر العظيم.

*فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين:-

1-مطيعين و عاصين 2-و مؤمنين و منافقين 3-و مسلمين و كافرين

ليرتب على ذلك الثواب و العقاب و ليظهر عدله و فضله و حكمته لخلقه.

(وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ)غير أن الله تعالى(يَجۡتَبِي)يصطفى(مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ)لـ:-يطلعه على بعض علم الغيب بوحى منه

*كقوله(عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا)الجن

(فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ)أطيعوا الله و رسوله و اتبعوه فيما شرع لكم

(وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ179)

بخل اليهود و عاقبة البخل 180-184

(وَلَا يَحْسَبَنَّ)و لا يظن(ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ)يمنعون

(بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ)من:-المال و الجاه و العلم و غير ذلك مما منحهم الله و أحسن إليهم به و أمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده (هُوَ خَيْرًا لَّهُم)

فـــــ:-

1-بخلوا بذلك 2-و أمسكوه 3-و ضنوا به على عباد الله 4-و ظنـوا أنه خير لهم

(بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ)فى دينهم و دنياهم و عاجلهم و آجلهم

(سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ)يجعل ما بخلوا به طوقا فى أعناقهم يُعذبون به(يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ) كما ورد فى الحديث فى البخارى 4565 - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ – يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ-يَقُولُ:-أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ"ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ:-

(وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) إِلَى آخِرِ الآيَةِ

*فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم و مجد عليهم فانقلب عليهم الأمر و صار من أعظم مضارهم و سبب عقابهم.

(وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ)هو تعالى مالك الملك و ترد جميع الأملاك إلى مالكها و ينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم و لا دينار و لا غير ذلك من المال.

قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) مريم: ٤٠

و تأمل كيف ذكر السبب الابتدائى و السبب الغائى الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه الله.

أخـــــبر:-

أولا:- أن الذى عنده و فى يده فضل من الله و نعمة ليس ملكا للعبد بل لولا فضل الله عليه و إحسانه لم يصل إليه منه شيء فمنعه لذلك منع لفضل الله و إحسانه و لأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده

كما قال تعالى:(وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ)القصص: ٧٧

فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله لم يمنع الفضل الذى لا يضره

بل ينفعه فى:-1- قلبه 2-و ماله 3-و زيادة إيمانه 4-و حفظه من الآفات.

ثانيا: أن هذا الذى بيد العباد كلها ترجع إلى الله و يرثها تعالى و هو خير الوارثين

*فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك منتقل إلى غيرك.

ثالثا:-السبب الجزائى فقال:-(وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)فإذا كان خبيرا بأعمالكم جميعها –

و يستلزم ذلك :-1-الجـزاء الحسن على الخيرات 2-و العقوبات على الشر-

1-لم يتخلف من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذى يجزى به الثواب

2-و لا يرضى بالإمساك الذى به العقاب ١٨٠

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾
ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ
قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾
كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ
فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا
وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

(لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ)

*رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ و ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ:-قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:-لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ:-
{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة:245] قَالَتِ الْيَهُودُ:-
يَا مُحَمَّدُ افْتَقَرَ رَبُّكَ. يَسأل عِبَادَهُ الْقَرْضَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:-{لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} الْآيَةَ.

*يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين الذين قالوا أقبح المقالة و أشنعها و أسمجها فأخبر أنه قد سمع ما قالوه

(سَنَكْتُبُ)نحفظ(مَا قَالُواْ)مقولة [إن الله فقير و نحن أغنياء].

مع أفعالهم الشنيعة(وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ)الناصحين(بِغَيْرِ حَقٍّ)و أنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة

و أنه يقال لهم – بدل قولهم –[إن الله فقير و نحن أغنياء]:-

(وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ)المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة181

(ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ)و أن عذابهم ليس ظلما من الله لهم

فإنه(لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)فإنه منزه عن ذلك و إنما ذلك بما قدمت أيديهم من:-

1-المخازي 2-و القبائح التي أوجبت:- 1-استحقاقهم العذاب 2-و حرمانهم الثواب.

*و قد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود تكلموا بذلك

و ذكروا منهم«فنحاص بن عازوراء»من رؤساء علماء اليهود في المدينة و أنه لما سمع قول الله تعالى:-

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة: ٢٤٥ قال:– على وجه التكبر و التجرهم– هذه المقالة قبحه الله فذكرها الله عنهم

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-روى ابن أبي حاتم بإسناد حسن أنها نزلت فيما بين أبي بكر و بين فنحاص اليهودى فى قوله تعالى:{إن الله فقير و نحن أغنياء}-تعالى الله عن قوله-فغضب أبو بكر فنزلت 182

*و أخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك و هو:–

(وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ)هذا القيد يراد به أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته لا جهلا و ضلالا بـل تمردا و عنادا

(ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟)يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين:–

هؤلاء اليهود حين دُعُوا إلى الإسلام قالوا:-

(إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ)أوصى(إِلَيْنَآ)فى التوراة(أَلَّا نُؤْمِنَ)نصدِّق(لِرَسُولٍ)جاءنا

(حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ)بصدقة يتقرب بها إلى الله(تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ)فتنزل نار من السماء فتحرقها.

*فجمعوا بين :–

1–الكذب على الله 2–و حصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين

*و أنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار فهم – في ذلك– مطيعون لربهم ملتزمون عهده

*و قد عُلِمَ أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات و البراهين ما على مثله آمن البشر و لم يقصرها على ما قالوه

*و مع هذا فقد قالوا إفكا لم يلتزموه و باطلا لم يعملوا به و لهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم:

(قُلْ)لهم -أيها الرسول-(قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ)الدالات على صدقهم

أنتم كاذبون في قولكم لأنه قد جاء آباءكم رسلٌ من قِبلى بـــ:-

1-المعجزات 2-و الدلائل على صدقهم

(وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ)بأن أتاكم بقربان تأكله النار

(فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ)فَلِمَ قَتَل آباؤكم هؤلاء الأنبياء

(إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

فى دعواهم الإيمان برسول يأتى بقربان تأكله النار فقد تبين بهذا كذبهم و عنادهم و تناقضهم 183

ثم سلَّى رسوله ﷺ فقال:–(فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ)

هذه عادة الظالمين و دأبهم الكفر بالله و تكذيب رسل الله و ليس تكذيبهم لرسل الله عن قصور ما أتوا به أو عدم تبين حجة

بل قد (جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ)الحجج العقلية و البراهين النقلية

(وَٱلزُّبُرِ)الكتب المزبورة المنزلة من السماء التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل.

جمع زبور وهو الكتاب كصحف إبراهيم. تفسير القاسمي : فالزبور فيه حكم زاجرة

(وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ)هو المشتمل على جميع الشريعة من المحاسن العقلية و منير أيضا للأخبار الصادقة الواضح البين كالتوراة و الزبور و الإنجيل184

*فإذا كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسل الذين هذا وصفهم فلا يحزنك أمرهم و لا يهمنك شأنهم.

ثم قال تعالى:(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ)

*كقوله(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ) الرحمن

*هذه الآية الكريمة فيها:-

1-التزهيد في الدنيا بفنائها و عدم بقائها

فناء الدنيا و فضل الصبر 185-186

2-و أنها متاع الغرور تفتن بزخرفها و تخدع بغرورها و تغر بمحاسنها

3-ثم هي منتقلة و منتقل عنها إلى دار القرار التى توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير و شر

(فَمَن زُحْزِحَ)أُخرج نُجِّيَ و أُبْعِدَ(عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ)

أي: حصل له :-1-الفوز العظيم من العذاب الأليم 2-و الوصول إلى جنات النعيم

التى فيها :-1-ما لا عين رأت 2-و لا أذن سمعت 3-و لا خطر على قلب بشر.

*ابن ماجه 3956-عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ:-انْتَهَيْتُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه وَ هُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَ النَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ:-

بَيْنَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺفِي سَفَرٍ إِذْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُ خِبَاءَهُ وَ مِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ وَ مِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ إِذْ نَادَى مُنَادِيهِ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ فَاجْتَمَعْنَا فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺفَخَطَبَنَا فَقَالَ:-

......فَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَوْتَتُهُ وَ هُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِى يُحِبُّ أَنْ يَأْتُوا إِلَيْهِ

*و مفهوم الآية:-

أن من لم يزحزح عن النار و يَدْخُلُ الجنة فإنه لم يفز بل قد شقى الشقاء الأبدى و ابْتُلى بالعذاب السرمدى.

*و فى هذه الآية إشارة لطيفة :-

1-إلى نعيم البرزخ و عذابه 2-و أن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه

3-و يقدم لهم أنموذج مما أسلفوه يفهم هذا من قوله:-

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ)توفية الأعمال التامة غير منقوصة إنما يكون(يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

*و أما ما دون ذلك فيكون فى البرزخ بل قد يكون قبل ذلك فى الدنيا كقوله تعالى:-

(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) السجدة: 22

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ)متعة زائلة(الْغُرُورِ)فلا تغترُّوا بها.

*هِيَ مَتَاعٌ مَتْرُوكٌ أَوْشَكَتْ أَنْ تَضْمَحِلَّ عَنْ أَهْلِهَا فَخُذُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ طَاعَةَ اللَّهِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ

*كقوله(وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)القصص: ٦٠

*مسلم (2858) عن الْمُسْتَوْرِد أَخَى بَنِى فِهْرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«وَ اللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ- وَ أَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ-فِي الْيَمِّ(هو البحر)

فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(لا يعلق بها كثير شيء من الماء ومعنى الحديث ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالإصبع إلى باقي البحر)185

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ)يخبر تعالى و يخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون فى:-

1-أموالهم من النفقات الواجبة و المستحبة و من التعريض لإتلافها في سبيل الله

2-و فى أنفسهم من التكليف بأعباء التكاليف الثقيلة على كثير من الناس

1-كالجهاد فى سبيل اللهو التعرض فيه للتعب و القتل و الأسر و الجراح

2-و كالأمراض التى تصيبه فى نفسه أو فيمن يحب.

(وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-أبي داود 3000 -عن عبدِ الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالكِ عن أبيه -و كان أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم-:-و كان كعْب بن الأشرفِ يَهجُو النبيَّ - ﷺ - و يُحرِّضُ عليه كفارَ قريشٍ و كان النبى- ﷺ-حين قدم المدينةَ و أهْلُهَا أخلاطٌ منهم المسلمون و المشركون يعبُدون الأوثانَ و اليهودُ و كانوا يُؤْذونَ النبيَّ-ﷺ-و أصحابَه فأمر اللهُ نبيّه بالصبرِ و العفْوِ ففيهم أنزلَ اللهُ:

{وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}[آل عمران: 186]

فلما أبي كعبُ بن الأشرفِ أن يَنزِعَ عن أذى النبيَّ-ﷺ-أمرَ النبيُّ-ﷺ-سعدَ بن مُعاذٍ أن يبعث رهْطاً يقتُلُونه فبعث محمدَ بن مَسلَمةَ و ذكر قصةَ قتْلِه فلمَّا قتلُوه فزِعَتِ اليهودُ و المشركُون فغَدَوْا على النبيَّ-ﷺ- فقالوا:طُرِقَ صاحبُنا فقُتل فذكَر لهم النبيُّ-ﷺ-الذى كان يقول و دعاهم النبيُّ-ﷺ-إلى أن يكتب بينه و بينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه فكتب النبى-ﷺ-بينه و بينهم و بين المسلمين عامةً صحيفةً.

*من الطعن:-1-فيكم 2-و فى دينكم 3-و كتابكم 4-و رسولكم.

و فى إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد:-

1- أن حكمته تعالى تقتضى ذلك ليتميز المؤمن الصادق من غيره 2-أنه تعالى يُقَدِّرُ عليهم هذه الأمور لما يريده بهم من الخير :-

1-ليعلى درجاتهم 2-و يكفر من سيئاتهم 3-و ليزداد بذلك إيمانهم 4-و يتم به إيقـــانهم

فإنه إذا أخبرهم بذلك و وقع كما أخبر

(وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا) الأحزاب: ٢٢

3-أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك و الصبر عليه إذا وقع لأنهم قد استعدوا لوقوعه

فيهون عليهم حمله و تخف عليهم مؤنته و يلجأون إلى الصبر و التقوى

و لهذا قال: (وَإِن تَصْبِرُوا۟)على ما نالكم فى أموالكم و أنفسكم من :-

1-الابتلاء و الامتحان 2-و على أذية الظالمين

(وَتَتَّقُوا۟)الله فى ذلك الصبر بأن:-

1-تنووا به وجه الله و التقرب إليه

2-و لم تتعدوا فى صبركم الحد الشرعي من الصبر فى موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال

بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

(فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ)التى يعزم عليها و ينافس فيها و لا يوفق لها إلا أهل العزائم و الهمم العالية

(وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)فصلت: ٣٥

*يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدمهم المدينَة قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ مُسَلِّيًا لَهُمْ عَمَّا نَالَهُمْ مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

وَ الْمُشْرِكِينَ وَ آمِرًا لَهُمْ بِالصَّبْرِ وَ الصَّفحِ وَ الْعَفْوِ حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ ١٨٦

وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ
وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ
أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾
وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا
سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ
وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ
رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

(وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ)

الميثاق:-هو العهد الثقيل المؤكد و هذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل من أعطاه الله الكتب و علمه العلم

1-أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله

2-و لا يكتمهم ذلك و يبخل عليهم به خصوصا :-1-إذا سألوه 2-أو وقع ما يوجب ذلك

*فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن:-

صفات اهل الكتاب 187-188

1-يبينه 2-و يوضح الحق من الباطل.

*فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام و عَلَّمُوا الناس مما علمهم الله :-

1-ابتغاء مرضاة ربهم 2-و شفقة على الخلق 2-و خوفا من إثم الكتمان.

*و أما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى و من شابههم:-(فَنَبَذُوهُ)أى هذه العهود و المواثيق

(وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ)فلم يعبأوا بها

1-فكتموا الحق 2-و أظهروا الباطل 3-تجرؤا على محارم الله و تهاونوا بحقوق الله و حقوق الخلق

4-(وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ)بذلك الكتمان(ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ)و هو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات و الأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم المقدمين شهواتهم على الحق

(فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)لأنه أخس العوض و الذى رغبوا عنه—و هو بيان الحق الذى فيه السعادة الأبدية و المصالح الدينية و الدنيوية— أعظم المطالب و أجلها

فلم يختاروا الدنيء الخسيس و يتركوا العالى النفيس إلا:–

1–لسوء حظهم و هوانهم 2–و كونهم لا يصلحون لغير ما خُلِقوا له 187

ثم قال تعالى:–(لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟)من القبائح و الباطل القولى و الفعلى.

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى 4567 - عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ:-

«أَنَّ رِجَالا مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺكَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِلَى الغَزْوِ :- تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَ فَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَ حَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا» فَنَزَلَتْ:(لاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا)الآيَةَ

*البخارى5219-عَنْ أَسْمَاءَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ:-يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي ضَرَّةً(هى الزوجة الأخرى لزوج المرأة سميت بذلك لما توقع بالأخرى من ضرر لمشاركتها لها بزوجها و ما يكون له من نفع و اسم هذه الضرة هنا أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها)

فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ إِنْ تَشَبَّعْتُ(ادعيت أنه يعطيني من الحظوة عنده أكثر ما هو واقع تريد بذلك غيظ ضرتها و إزعاجها)مِنْ زَوْجِي غَيْرَ الَّذِي يُعْطِينِي؟فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-«المُتَشَبِّعُ(المتزين و المتظاهر شبه بالشبعان)بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»

(كمن يلبس ثوبين مستعارين أو مودوعين عنده يتظاهر أنها ملكه.و قيل هو من يلبس لباس أهل الزهد و التقوى و الصلاح و هو ليس كذلك و قيل يلبس ثوب و يصل بكميه كمين آخرين ليوهم أنهما ثوبان رياء و مفاخرة)

*مسلم (110) عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺقَالَ:-

وَ مَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً(هذه اللغة الفصيحة يقال دعوى باطل وباطلة وكاذب وكاذبة حكاهما صاحب المحكم والتأنيث أفصح) لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قِلَّةً وَ مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ فَاجِرَةٍ»

(قال القاضي عياض رحمه الله لم يأت في الحديث هنا الخبر عن هذا الحالف إلا أن يعطفه على قوله قبله ومن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده بها الله إلا قلة أي وكذلك من حلف على يمين صبر فهو مثله ويمين الصبر هي التي ألزم بها الحالف عند حاكم ونحوه وأصل الصبر هو الحبس والإمساك ومعنى الفجور في اليمين هو الكذب)

*البخارى 4568 - أَنَّ عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ لِبَوَّابِهِ:-اذْهَبْ يَا رَافِعُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ:- لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه:وَ مَا لَكُمْ وَ لِهَذِهِ(أي لم تسألون عن هذه المسألة و هذه الآية لم تنزل فيكم)

«إِنَّمَا دَعَا النَّبِيُّ ﷺيَهُودَ فَسَأَلَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَ أَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ فَأَرَوْهُ أَنْ قَدِ اسْتَحْمَدُوا إِلَيْهِ (صاروا محمودين عنده)بِمَا أَخْبَرُوهُ عَنْهُ فِيمَا سَأَلَهُمْ وَ فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ» ثُمَّ قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ}[آل عمران: 187]

كَذَلِكَ(إشارة إلى أن الذين أخبر عنهم في الآية المسؤول عنها هم المذكورون في الآية قبلها انظر 4291)حَتَّى قَوْلِهِ:

{يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا} [آل عمران: 188]

(وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟)أى: بـــ:–1–الخير الذى لم يفعلوه 2–و الحق الذى لم يقولوه

*فجمعوا بين:–1–فعل الشر و قوله 2–و الفرح بذلك و محبة أن يحمدوا على فعل الخير الذى ما فعلوه.

(فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ)بمحل نجوة (مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ)و سلامة بل قد استحقوه و سيصيرون إليه

و لهذا قال: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

و يدخل فى هذه الآية الكريمة :-

1-أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم و لم ينقادوا للرسول و زعموا أنهم هم المحقون فى حالهم و مقالهم

2-كذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية و فرح بها و دعا إليها و زعم أنه محق و غيره مبطل كما هو الواقع من أهل البدع.

3-و دلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمد و يثنى عليه بما فعله من الخير و اتباع الحق إذا لم يكن قصده بذلك الرياء و السمعة أنه غير مذموم بل هذا من الأمور المطلوبة التى أخبر الله أنه يجزى بها المحسنين له الأعمال و الأقوال و أنه جازى بها خواص خلقه و سألوها منه كما قال إبراهيم عليه السلام:-

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ الشعراء: ٨٤ و قال:-﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الصافات وقد قال عباد الرحمن:-﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفرقان: ٧٤ و هى من نعم البارى على عبده و مننه التى تحتاج إلى الشكر 188

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾هو المالك للسماوات و الأرض و ما فيهما من سائر أصناف الخلق المتصرف فيهم بكمال القدرة و بديع الصنعة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾فلا يمتنع عليه منهم أحد و لا يعجزه أحد ١٨٩

يخبر تعالى:﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ﴾ كلمة مبهمة

و لم يقل:-«على المطلب الفلانى»:-إشارة لكثرتها و عمومها

و ذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما:-1-يبهر الناظرين 2-و يقنع المتفكرين 3-و يجذب أفئدة الصادقين

4-و ينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية

فأما تفصيل ما اشتملت عليه فلا يمكن لمخلوق أن يحصره و يحيط ببعضه

و فى ضمن ذلك حث العباد على:-1-التفكر فيها 2-و التبصر بآياتها 3-و تدبر خلقها

*و فى الجملة فما فيها من :-1-العظمة و السعة 2-و انتظام السير و الحركة يدل على :-

1-عظمة خالقها 2-و عظمة سلطانه 3-و شمول قدرته

و ما فيها من الإحكام و الإتقان و بديع الصنع و لطائف الفعل يدل على :-

1-حكمة الله و وضعه الأشياء مواضعها 2-و سعة علمه.

و ما فيها من المنافع للخلق يدل على:- 1-سعة رحمة الله 2-و عموم فضله 3-و شمول بره 4-و وجوب شكره.

*و كل ذلك يدل على :-1-تعلق القلب بخالقها و مبدعها 2-و بذل الجهد فى مرضاته

3–و أن لا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه و لا لغيره مثقال ذرة فى الأرض و لا فى السماء.

وخص الله بالآيات(لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ)أهل العقول لأنهم هم المنتفعون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم 190

*ثم وصف أولى الألباب بأنهم(ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ)فى جميع أحوالهم:

(قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ)و هذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول و القلب

و يدخل فى ذلك الصلاة قائما فإن لم يستطع فقاعدا فإن لم يستطع فعلى جنب

(و)أنهم(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ)ليستدلوا بها على المقصود منها

و دل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين فإذا تفكروا بها عرفوا أن الله لم يخلقها عبثا

فيقولون:(رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ)عن كل ما لا يليق بجلالك بل خلقتها بالحق و للحق مشتملة على الحق.

(فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ)1–بأن تعصمنا من السيئات 2–و توفقنا للأعمال الصالحات لننال بذلك النجاة من النار.

3–و يتضمن ذلك سؤال الجنة لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة

و لكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا الله بأهم الأمور عندهم 191

(رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ)أظهرت خزيه يوم الجمع

أي: لحصوله على السخط من الله و من ملائكته و أوليائه و وقوع الفضيحة التي لا نجاة منها و لا منقذ منها

*و لهذا قال:–(وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ)ينقذونهم من عذابه .و فيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

*وَ قَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِهِ وَ صِفَاتِهِ وَ شَرْعِهِ وَ قَدْرِهِ وَ آيَاتِهِ فَقَالَ:-

{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ 105 وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}يُوسُفَ

وَ مَدَحَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}

قَائِلِينَ {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا} 192

(رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا)محمد ﷺ

(يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ رَبَّنَا)يدعو الناس إليه و يرغبهم فيه فى أصوله و فروعه.

(فَـَٔامَنَّاۚ)أجبناه مبادرة و سارعنا إليه و فى هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم و تبجح بنعمته

(فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا)و توسل إليه بذلك أن:–

1–يغفر ذنوبهم 2–و يكفر سيئاتهم لأن الحسنات يذهبن السيئات

و الذى من عليهم بالإيمان سَيَمُنُ عليهم بالأمان التام.

(وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ)يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير و ترك الشر الذى به يكون العبد من الأبرار

و الاستمرار عليه و الثبات إلى الممات193

(رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ)من نصر و تمكين و توفيق و هداية

و لما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان و توسلهم به إلى تمام النعمة سألوه:-

1-الثواب على ذلك 2-و أن ينجز لهم ما وعدهم به على ألسنة رسله من النصر

3-و الظهور فى الدنيا 4-و من الفوز برضوان الله و جنته فى الآخرة

(وَلَا تُخۡزِنَا)تفضحنا بذنوبنا(يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ)

(إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ)فإنه تعالى لا يخلف الميعاد

فأجاب الله دعاءهم و قبل تضرعهم فإنك كريم لا تُخْلف وعدًا وَعَدْتَ به عبادك.

*مسلم(763) عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ بَاتَ لَيْلَةً عِنْدَ مَيْمُونَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَ هِيَ خَالَتُهُ قَالَ: فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الْوِسَادَةِ(الوسادة المعروفة التى تكون تحت الرؤوس)

وَ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺوَ أَهْلُهُ فِي طُولِهَا فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺحَتَّى انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّوْمَ(أثر النوم)عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ(إنما أنثها على إرادة القربة وفي رواية بعد هذه شن معلق على إرادة السقاء والوعاء قال أهل اللغة الشن القربة الخلق وجمعها شنان) فَتَوَضَّأَ مِنْهَا فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ:-

فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ

فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺيَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِى وَ أَخَذَ بِأُذُنِي الْيُمْنَى يَفْتِلُهَا

فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ أَوْتَرَ

ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى جَاءَ الْمُؤَذِّنُ فَقَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ194

فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ
فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ
لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾
مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾
وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ
خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ) أجاب الله دعاءهم :-1-دعاء العبادة 2-و دعاء الطلب

(أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ)فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملا موفرا

(بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ)كلكم على حد سواء في الثواب و العقاب

(فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ)ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤوهم إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ

(وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي)إِنَّمَا كَانَ ذنْبهم إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:

{يُخۡرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمۡ أَنۡ تُؤۡمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمۡ}[الْمُمْتَحِنَة:1]وَ قَالَ تَعَالَى:{وَمَا نَقَمُوا مِنۡهُمۡ إِلا أَنۡ يُؤۡمِنُوا بِاللَّهِ الۡعَزِيزِ الۡحَمِيدِ}[الْبُرُوج:8]

(وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ)وَ هَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فيُعْقَر جَواده و يعفَّر وَجْهُهُ بِدَمِهِ و تُرَابِهِ

*مسلم (1885) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّهُ سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ
فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الْإِيمَانَ بِاللهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ:-
يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟
فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ أَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ»
ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:« كَيْفَ قُلْتَ؟»قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟
فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-«نَعَمْ وَ أَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ(المخلص لله تعالى) مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ إِلَّا الدَّيْنَ
(فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين و أن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين) فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ»

فجمعوا بين :-1-الإيمان 2-و الهجرة 3-و مفارقة المحبوبات من الأوطان و الأموال ←
طلبا لمرضاة ربهم و جاهدوا في سبيل الله

(لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ)
الذى يعطى عبده الثواب الجزيل على العمل القليل.

(وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ)مما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر

فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته و التقرب إليه بما يقدر عليه العبد195

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ)و هذه الآية المقصود منها:-
التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا و تنعمهم فيها
و تقلبهم فى البلاد بـ:-

1-أنواع التجارات و المكاسب و اللذات 2-و أنواع العز 3-و الغلبة فى بعض الأوقات196

فإن هذا كله(مَتَاعٌ قَلِيلٌ)لَا تَنْظُرُوا إِلَى مَا هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ مُتْرفون فِيهِ مِنَ :-
النِّعْمَة و الغِبْطَة وَ السُّرُورِ فعمّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ وَ يُصْبِحُونَ مُرتَهنين بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ
*فَإِنَّمَا نَمُدّ لَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا وَ جَمِيعُ مَا هُمْ فِيهِ{مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}
وَ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ}[غَافِرٍ:4]

(ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ)يعذبون عليه طويلا هذه أعلى حالة تكون للكافر و قد رأيت ما تؤول إليه.

(وَبِئْسَ الْمِهَادُ)الفراش197

جزاء المتقين 198-200

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)و أما المتقون لربهم المؤمنون به- فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا و نعيمها

(لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)
فلو قدر أنهم فى دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس و شدة و عناء و مشقة لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم
و العيش السليم و السرور و الحبور و البهجة نزرا يسيرا و منحة في صورة محنة

(نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ)ه ى منزلهم الدائم لا يخرجون منه.

و لهذا قال تعالى: (وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ)و هم الذين برت قلوبهم← فبرت أقوالهم و أفعالهم
فأثابهم البر الرحيم من بره أجرا عظيما و عطاء جسيما و فوزا دائما198

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)طائفة موفقة للخير:-

1-(لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ) 2-و يؤمنون (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ) 3-و يؤمنون (وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ)

و هذا الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل و الكتب و يكفر ببعض.

* الصحيح المسند من أسباب النزول:-قال الإمام أبو بكر البزار عن أنس ﷺأَنَّ النَّبِيَّ ﷺصَلَّى عَلَى النَّجَاشِيِّ حِينَ نُعِيَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ تُصَلّى عَلَى عَبْدٍ حَبَشِيٍّ؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ{وَإِنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن الله}

*و لهذا–لما كان إيمانهم عاما حقيقيا–صار نافعا(خَٰشِعِينَ لِلَّهِ)مُطِيعُونَ لَهُ خَاضِعُونَ مُتَذَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ

فأحدث لهم خشية الله و خضوعهم لجلاله الموجب لـ:-

1–الانقياد لأوامره و نواهيه 2–و الوقوف عند حدوده.

و هؤلاء أهل الكتاب و العلم على الحقيقة كما قال تعالى:(إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ)فاطر: ٢٨

*يخبرُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ وَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعَ مَا هُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ

و من تمام خشيتهم لله أنهم (لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ)

*أَيْ: لَا يَكْتُمُونَ بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِشَارَاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَ ذِكْرَ صِفَتَهُ وَ نَعْتَهُ وَ مَبْعَثَهُ وَ صِفَةَ أُمَّتِهِ وَ هَؤُلَاءِ هُمْ خِيرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَ صَفْوَتُهُمْ سَوَاءً كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَصَصِ:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ52 وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ53 أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} الْآيَةَ [الْقَصَصِ]

وَ قَالَ تَعَالَى:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}الْآيَةَ [الْبَقَرَةِ:121]

وَ قَالَ:{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ}[الْأَعْرَافِ:159] وَ قَالَ تَعَالَى:-

{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آلِ عِمْرَانَ:113]

وَ قَالَ تَعَالَى:{قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الْإِسْرَاءِ:107-109]

وَ هَذِهِ الصِّفَاتُ تُوجَدُ فِي الْيَهُودِ وَ لَكِنْ قَلِيلًا كَمَا وُجِدَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَ أَمْثَالِهِ مِمَّنْ آمَنُ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَ لَمْ يَبْلُغُوا عَشْرَةَ أنفس وَ أَمَّا النَّصَارَى فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ مُهْتَدُونَ وَ يَنْقَادُونَ لِلْحَقِّ

كقوله{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ82 وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ83 وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ84فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}[الْمَائِدَةِ]

فلا يقدمون الدنيا على الدين كما فعل أهل الانحراف الذين :-

1–يكتمون ما أنزل الله 2–و يشترون به ثمنا قليلا

*و أما هؤلاء:-

1–فعرفوا الأمر على الحقيقة و علموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين

و الوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية و ترك الحق الذى هو:-أكبر حظ و فوز فى الدنيا و الآخرة

2-فآثروا الحق و بينوه و دعوا إليه و حذروا عن الباطل

(أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ)

فأثابهم الله على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل و الثواب الجميل و أخبرهم بقربه

(إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ)فلا يستبطؤون ما وعدهم الله لأن ما هو آت محقق حصوله فهو قريب

*مسلم(154)عن أَبِي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِﷺقَالَ:-ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ:-

1- رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺفَآمَنَ بِهِ وَ اتَّبَعَهُ وَ صَدَّقَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ

2-وَ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللهِ تَعَالَى وَ حَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ

3-وَ رَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَ تَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ 199

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ)

ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح– و هو: الفوز و السعادة و النجاح

و أن الطريق الموصل إلى ذلك لزوم الصبر:– الذى هو حبس النفس على ما تكرهه من:–

1–ترك المعاصى 2–و من الصبر على المصائب 3–و على الأوامر الثقيلة على النفوس

فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

(وَصَابِرُواْ)المصابرة:–الملازمة و الاستمرار على ذلك على الدوام و مقاومة الأعداء فى جميع الأحوال.

(وَرَابِطُواْ)المرابطة:–لزوم المحل الذى يخاف من وصول العدو منه و أن يراقبوا أعداءهم و يمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم

*مسلم (251) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺقَالَ:-

«أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا وَ يَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:-

«1-إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ

(المكاره جمع مكره وهو ما يكرهه الإنسان ويشق عليه والكره بالضم والفتح المشقة والمعنى أن يتوضأ مع البرد الشديد والعلل التي يتأذى معها بمس الماء)

2-وَ كَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ 3-وَ انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»

(الرباط المرغب فيه وأصل الرباط الحبس على الشىء كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة)

*البخارى2892 عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِىِّ رضي الله عنه:-أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-

«رِبَاطُ(أصل الرباط ما تربط به الخيل ثم قيل لكل أهل ثغر يدفع عمن خلفه رباط)يَوْمٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَ مَا عَلَيْهَا

وَ مَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَ مَا عَلَيْهَا

وَ الرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَ مَا عَلَيْهَا»

*مسلم (1913) عَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

«رِبَاطُ يَوْمٍ وَ لَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَ قِيَامِهِ وَ إِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كَانَ يَعْمَلُهُ وَ أُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَ أَمِنَ الْفَتَّانَ»

(وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ)فى جميع أموركم و أحوالكم

(لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)يفوزون بالمحبوب الدينى و الدنيوى و الأخروى و ينجون من المكروه كذلك.

*فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون:-1- الصبر 2-و المصابرة 3-و المرابطة المذكورات

فلم يفلح من أفلح إلا بها و لم يفت أحدا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها و الله الموفق200

3-سورة النساء-مدنية-بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ
وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾
وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ
فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾
وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾
وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾
وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ
وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا
فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾

وحدة الأصل الانسانى و الرحم

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ)

افتتح تعالى هذه السورة بالأمر:-

1- بتقواه 2-و الحث على عبادته 3-و الأمر بصلة الأرحام و الحث على ذلك.

و بيَّن السبب الداعى الموجب لكل من ذلك و أن الموجب لتقواه أن :-

(رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم)و رزقكم و رباكم بنعمه العظيمة التى من جملتها خلقكم

(مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ)هى آدم عليه السلام(وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا)و هى حواء لـ:-

1-يناسبها 2-فيسكن إليها 3-و تتم بذلك النعمة 4-و يحصل به السرور

و كذلك من الموجب الداعى لتقواه تساؤلكم به و تعظيمكم حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم و مآربكم:-

توسلتم بها بالسؤال بالله. فيقول من يريد ذلك لغيره:-

أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلانى لعلمه بما قام فى قلبه من تعظيم الله الداعى أن لا يرد من سأله بالله

فكما عظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته و تقواه

(وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا)تنبيه على مراعاة حق الأزواج و الزوجات و القيام به لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج

فبينهم و بينهن أقرب نسب و أشد اتصال و أقرب علاقة.

*البخارى3331-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-

«اسْتَوْصُوا(تواصوا فيما بينكم بالإحسان إليهن)بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ(أحد عظام الصدر والمعنى أن في خلقهن عوجا من أصل الخلقة)

وَ إِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ(أى وكذلك المرأة عوجها الشديد فى خلقها وفكرها)

فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ(تجعله مستقيما) كَسَرْتَهُ(وكذلك المرأة إن أردت منها الاستقامة التامة في الخلق أدى الأمر إلى طلاقها)

وَ إِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»

(وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً)بثهم فى أقطار الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحد — لـ:-

1-يعطف بعضهم على بعض 2-و يرقق بعضهم على بعض.

(وَاتَّقُوا)راقبوا(اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ)الذى يَسْأل به بعضكم بعضًا(وَالْأَرْحَامَ)و احذروا أن تقطعوا أرحامكم.

* كما يُقَالُ: أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ و بالرَّحِم.

*و قرن الأمر بتقواه بالأمر بـ بـــر الأرحام و النهى عن قطيعتها لـــ:-

1-يؤكد هذا الحق

2-و أنه كما يلزم القيام بحق الله كذلك يجب القيام بحقوق الخلق خصوصا الأقربين منهم

*بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذى أمر به.

*و تأمل كيف افتتح هذه السورة بـ:-

1-الأمر بالتقوى 2-و صلة الأرحام و الأزواج عموما

اليتامى -تعدد الزوجات -المهور 2-6

ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل من أول السورة إلى آخرها فكأنها مبنية على هذه الأمور المذكورة مفصلة لما أجمل منها موضحة لما أبهم.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)مطلع على العباد في حال حركاتهم و سكونهم و سرهم و علنهم و جميع أحوالهم مراقبا لهم فيها مما يوجب مراقبته و شدة الحياء منه بلزوم تقواه.

كما قَالَ:{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[البُرُوج: 9]

*مسلم حديث(9)قال ﷺ«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»

*مسلم (1017) عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ

قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ(نصب على الحالية أى لابسيها خارقين أوساطها مقورين يقال اجتبت القميص أي دخلت فيه والنمار جمع نمرة وهي ثياب صوف فيها تنمير وقيل هي كل شملة مخططة من مآزر الأعراب كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض أراد أنه جاءه قوم لابسى أزر مخططة من صوف)أَوِ الْعَبَاءِ(بالمد وبفتح العين جمع عباءة وعباية لغتان نوع من الأكسية)مُتَقَلِّدِى السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ

فَتَمَعَّرَ(تغير)وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَ أَقَامَ فَصَلَّى

ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ:-{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}[النساء: 1] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ

{إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النساء: 1]وَ الْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ:{اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ}[الحشر: 18]

«تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ-حَتَّى قَالَ-وَ لَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»

قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ قَالَ:-

ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ(هو بفتح الكاف وضمها قال القاضي ضبطه بعضهم بالفتح وبعضهم بالضم قال ابن سراج هو بالضم اسم لما كوم وبالفتح المرة الواحدة قال والكومة بالضم الصبرة والكوم العظيم من كل شيء والكوم المكان المرتفع كالرابية قال القاضي فالفتح هنا أولى لأن مقصوده الكثرة والتشبيه بالرابية) مِنْ طَعَامٍ وَ ثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ(يستنير فرحا و سرورا) كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ(ضبطوه بوجهين أحدهما وهو المشهور وبه جزم القاضي والجمهور مذهبة والثاني ولم يذكر الحميدي في الجمع بين الصحيحين غيره مدهنة وقال القاضي عياض في المشارق وغيره من الأئمة هذا تصحيف وذكر القاضي وجهين في تفسيره أحدهما معناه فضة مذهبة فهو أبلغ في حسن الوجه وإشراقه والثاني شبهه في حسنه ونوره بالمذهبة من الجلود وجمعها مذاهب وهى شىء كانت العرب تصنعه من جلود وتجعل فيها خطوط مذهبة يرى بعضها إثر بعض)فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَ مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَ وِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» 1

(وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ)و أعطوا مَن مات آباؤهم و هم دون البلوغ و كنتم عليهم أوصياء

(أَمْوَٰلَهُمْ)و رأيتم منهم قدرة على حفظ أمواله

*هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة و هم اليتامى:-

الذين فقدوا آباءهم الكافلين لهم وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم.

1-فأمر الرءوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم

2-و أن لا يقربوا أموالهم إلا بالتى هى أحسن

3-و أن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا و رشدوا كاملة موفرة

و أن لا(وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ)الردىء من أموالكم الذى هو أكل مال اليتيم بغير حق

(بِٱلطَّيِّبِ ۖ)الجيِّد من أموالهم و هو الحلال الذى ما فيه حرج و لا تبعة.

*لَا تعْجل بِالرِّزْقِ الْحَرَامِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ الَّذِى قُدِّرَ لَكَ.

*كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ مِنْ غنم الْيَتِيمِ وَ يَجْعَلُ فِيهَا مَكَانَهَا الشَّاةَ الْمَهْزُولَةَ وَ يَقُولُ شَاةٌ بِشَاةٍ وَ يَأْخُذُ الدِّرْهَمَ الجَيِّد وَ يَطْرَحُ مَكَانَهُ الزّيْف وَ يَقُولُ:-دِرْهَمٌ بِدِرْهَمٍ

*و من استبدال الخبيث بالطيب أن:-

1-يأخذ الولى من مال اليتيم النفيس 2-و يجعل بدله من ماله الخسيس.

3-و فيه الولاية على اليتيم لأن مِنْ لازم إيتاء اليتيم ماله ثبوت ولاية المؤتي على ماله

4-و فيه الأمر بإصلاح مال اليتيم لأن تمام إيتائه ماله :-

1-حفظه 2-و القيام به بما يصلحه و ينميه 3-و عدم تعريضه للمخاوف و الأخطار.

(وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ)أىْ لا تخلطوها فتأكلوها جميعا.

*أى:مع أموالكم ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة التى قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله.

فمن تجرأ على هذه الحالة فقد أتى (إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا)إثمًا عظيمًا و وزرًا جسيمًا 2

(وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ)تعدلوا(فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ)فى يتامى النساء اللاتى تحت حجوركم و ولايتكم

و خفتم أن لا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن فاعدلوا إلى غيرهن

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-البخارى4573 - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:-

أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا وَ كَانَ لَهَا عَذْقٌ وَ كَانَ يُمْسِكُهَا عَلَيْهِ(من أجله)وَ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ

(أي لم يعاملها معاملة الأزواج و لا يمتعها بنفسه كزوج)فَنَزَلَتْ فِيهِ:-{وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى}أَحْسِبُهُ قَالَ:

كَانَتْ شَرِيكَتَهُ فِي ذَلِكَ العَذْقِ(النخلة)و فِي مَالِهِ "

*البخارى4574 - عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:{وَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى}

فَقَالَتْ:-يَا ابْنَ أُخْتِي هَذِهِ اليَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا تَشْرَكُهُ فِي مَالِهِ وَ يُعْجِبُهُ مَالُهَا وَ جَمَالُهَا

فَيُرِيدُ وَلِيُّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِغَيْرِ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيَهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ فَنُهُوا عَنْ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ

إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ وَ يَبْلُغُوا لَهُنَّ أَعْلَى سُنَّتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ فَأُمِرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ

قَالَ عُرْوَةُ:-قَالَتْ عَائِشَةُ:-وَ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ:-{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ}

[النساء: 127] قَالَتْ عَائِشَةُ:-وَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى:-{وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} [النساء: 127]:

رَغْبَةُ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ حِينَ تَكُونُ قَلِيلَةَ المَالِ وَ الجَمَالِ قَالَتْ:-فَنُهُوا أَنْ يَنْكِحُوا عَنْ مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهِ

وَ جَمَالِهِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ إِلَّا بِالقِسْطِ مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ إِذَا كُنَّ قَلِيلاَتِ المَالِ وَ الجَمَالِ "

(فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ)ما وقع عليهن اختياركم من ذوات الدين و المال و الجمال و الحسب و النسب

و غير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن فاختاروا على نظركم

و من أحسن ما يُختار من ذلك صفة الدين كما قال النبى ﷺ :–

« تنكح المرأة لأربع لمالها و لجمالها و لحسبها و لدينها فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يمينك »

و فى هذه الآية :–

أنه ينبغى للإنسان أن يختار قبل النكاح بل و قد أباح له الشارعُ النظر إلى مَنْ يريد تزوجها ليكون على بصيرة

من أمره.

*فى الآية دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور بهبل منهى عنه كالمشركة و كالفاجرة كما قال تعالى:-

(وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ)البقرة: ٢٢١(ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ)النور: ٣

ثم ذكر العدد الذى أباحه من النساء فقال:–

(مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ)

مَنْ أحب أن يأخذ اثنتين فليفعل أو ثلاثا فليفعل أو أربعا فليفعل و لا يزيد عليها لأن الآية سيقت لبيان الامتنان

*فلا يجوز الزيادة على غير ما سمى الله تعالى إجماعا.

و ذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة فأبيح له واحدة بعد واحدة حتى يبلغ أربعا لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر

*و مع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور و الظلم و وثق بالقيام بحقوقهن.

(فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟)فإن خاف شيئا من هذا(فَوَٰحِدَةً)فليقتصر على واحدة (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ)على ملك يمينه.

فإنه لا يجب عليه القسم فى ملك اليمين فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ قَسْمٌ بَيْنَهُنَّ وَ لَكِنْ يُسْتَحَبُّ فَمَنْ فَعَلَ فَحَسَنٌ وَ مَنْ لَا فَلَا حَرَجَ فَإِنْ خَشِيتُمْ مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ أَلَّا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ لقوله:-

{وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ}[النِّسَاءِ: 129]

(ذَٰلِكَ)الاقتصار على واحدة أو ما ملكت اليمين

ذلك الذي شرعته لكم في:-

1- اليتيمات 2-و الزواج من واحدة إلى أربع 3-أو الاقتصار على واحدة أو ملك اليمين

(أَدْنَىٰٓ)أقرب(أَلَّا تَعُولُوا۟)تظلموا و تجوروا و تتعدوا

*و فى هذا أن تعرض العبد للأمر الذى يَخافُ منه الجور و الظلم و عدم القيام بالواجب—و لو كان مباحًا—أنه لا ينبغى له أن يتعرض له ←بل يلزم السعة و العافية فإن العافيةَ خيرُ ما أعطى العبد.

*يُقَالُ: عَالَ فِي الْحُكْمِ:-إِذَا قَسَط وَ ظَلَمَ وَ جَارَ وَ قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ:-

بِمِيزَانِ قسطٍ لَا يَخيس شُعَيْرَةً ... لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلِ 3

*و لما كان كثير من الناس يظلمون النساء و يهضمونهن حقوقهن خصوصا الصداق الذي يكون شيئا كثيرًا و دفعة واحدة يشق دفعه للزوجة

(وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ)أمرهم و حثهم على إيتاء النساء(صَدُقَـٰتِهِنَّ)مهورهن

(نِحْلَةً)عن طيب نفس و حال طمأنينة فلا تمطلوهن أو تبخسوا منه شيئا.

*و فيه: أن المهر يُدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة و أنها تملكه بالعقد لأنه أضافه إليها و الإضافة تقتضى التمليك.

(فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ)من الصداق

(نَفْسًا)بأن سمحن لكم عن رضا و اختيار بإسقاط شيء منه أو تأخيره أو المعاوضة عنه.

(فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا)فخذوه و تصرَّفوا فيه فهو حلال طيب فلا حرج عليكم فى ذلك و لا تبعة.

و فيه دليل على أن:-

للمرأة التصرف فى مالها–و لو بالتبرع–إذا كانت رشيدة فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم و أنه ليس لوليها من الصداق شيء غير ما طابت به 4

(وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ)جمع« سفيه »و هو:–من لا يحسن التصرف فى المال

1–إما لعدم عقله كالمجنون و المعتوه و نحوهما

2–و إما لعدم رشده كالصغير((فَإِنَّ الصَّغِيرَ مَسْلُوبُ الْعِبَارَةِ))و غير الرشيد.

3-وَ تَارَةً لِسُوءِ التَّصَرُّفِ لِنَقْصِ الْعَقْلِ أَوِ الدِّينِ

4-وَ تَارَةً يَكُونُ الْحَجْرُ لِلفَلَسِ وَ هُوَ مَا إِذَا أَحَاطَتِ الدُّيُونُ بِرَجُلٍ و ضاق مَالُهُ عَنْ وَفَائِهَا فَإِذَا سَأَلَ الغُرَمَاء الْحَاكِمَ الحَجْرَ عَلَيْهِ حَجَرَ عَلَيْهِ.

←فنهى الله الأولياء أن يؤتوا هؤلاء أموالهم خشية إفسادها و إتلافها

(أَمْوَٰلَكُمُ)و فى إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء:–

إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا فى أموال السفهاء ما يفعلونه فى أموالهم من الحفظ و التصرف و عدم التعريض للأخطار

تفسير أخر (وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ):–

(ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ)لأن الله جعل الأموال

(قِيَٰمًا)لعباده فى مصالح دينهم و دنياهم مِنَ التِّجَارَاتِ وَ غَيْرِهَا و هؤلاء لا يحسنون القيام عليها و حفظها

(وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ)

*فأمر الولى أن لا يؤتيهم إياها بل يرزقهم منها و يكسوهم و يبذل منها ما يتعلق بضروراتهم و حاجاتهم الدينية و الدنيوية

*لَا تَعْمَد إِلَى مَالِكَ وَ مَا خَوَّلك اللَّهُ وَ جَعَلَهُ مَعِيشَةً فتعطيَه امْرَأَتَكَ أَوْ بَنِيكَ ثُمَّ تُنْظُرَ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَ لَكِنْ أَمْسِكْ مَالَكَ و أصلحْه وَ كُنْ أَنْتَ الَّذِى تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ من كِسْوتهم وَ مُؤْنَتِهِمْ وَ رِزْقِهِمْ.

*و فى الآية دليل على:– أن نفقة المجنون و الصغير و السفيه فى مالهم إذا كان لهم مال

(وَقُولُوا۟)و أن يقولوا(لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا)بأن:–

1–يعدوهم–إذا طلبوها–أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم و نحو ذلك

2–و يلطفوا لهم فى الأقوال جبرًا لخواطرهم.

*و فيه دليل على أن قول الولى مقبول فيما يدعيه من:–

النفقة الممكنة و الكسوة لأن الله جعله مؤتمنا على مالهم فلزم قبول قول الأمين 5

(وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ)الابتلاء: هو الاختبار و الامتحان

(حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ)الحُلُم الْبُلُوغُ فِي الْغُلَامِ تَارَةً يَكُونُ:-

1-بالحُلُم:-وَ هُوَ أَنْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يُنْزِلُ بِهِ الْمَاءَ الدَّافِقَ الَّذِى يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ.

*أبي داود:-4398 عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ:-*رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ:-

1-عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ 2-وَ عَنِ الْمُبْتَلَى حَتَّى يَبْرَأَ 3-وَ عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَكْبُرَ

2-أو يستكمل خمس عشر سنة و أخذوا ذلك من الحديث:

*البخارى 4097 -عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ:عَرَضَهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَ هُوَ ابْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً فَلَمْ يُجِزْهُ وَ عَرَضَهُ يَوْمَ الخَنْدَقِ وَ هُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَهُ

3-إِنْبَاتِ الشَّعْرِ الْخَشِنِ حَوْلَ الْفَرْجِ وَ هُوَ الشِّعْرة هَلْ تَدُل عَلَى بُلُوغِ أَمْ لَا؟وَ الصَّحِيحُ أَنَّهَا بُلُوغٌ

*أحمد 18776 -عن عَطِيَّةَ الْقُرَظِيَّ يَقُولُ:-«عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺيَوْمَ قُرَيْظَةَ فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ وَ مَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّىَ سَبِيلُهُ فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ فَخُلِّىَ سَبِيلى»

*و ذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد الممكن رشده شيئا من ماله و يتصرف فيه التصرف اللائق بحاله فيتبين بذلك رشده من سفهه فإن استمر غير محسن للتصرف لم يدفع إليه ماله بل هو باق على سفهه و لو بلغ عمرا كثيرا.

(فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا)فإن تبين رشده و صلاحه فى ماله و بلغ النكاح

(فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ)كاملة موفرة.

(وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا)

مجاوزة للحد الحلال الذى أباحه الله لكم من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

(وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ)مبادرة قبل بلوغهم

*و لا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم و لا منعكم من أكلها تبادرون بذلك أن يكبروا فيأخذوها منكم و يمنعوكم منها.

*و هذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء الذين ليس عندهم خوف من الله و لا رحمة ومحبة للمولى عليهم يرون هذه الحال حال فرصة فيغتنمونها و يتعجلون ما حرم الله عليهم فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

(وَمَن كَانَ غَنِيًّا)صاحب مال منكم(فَلْيَسْتَعْفِفْ)بغناه و لا يأخذ من مال اليتيم شيئًا

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى

2212-عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَقُولُ:-{وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [النساء: 6] أُنْزِلَتْ فِي وَالِي الْيَتِيمِ الَّذِي يُقِيمُ عَلَيْهِ وَ يُصْلِحُ فِي مَالِهِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا أَكَلَ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ

(وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ)فيأخذ بقدر حاجته عند الضرورة.

(فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ)فإذا علمتم أنهم قادرون على حفظ أموالهم بعد بلوغهم الحُلُم وسلمتموها إليهم

(فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ)ضمانًا لوصول حقهم كاملا إليهم لئلا ينكروا ذلك.

*لِئَلَّا يَقَعَ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُود و إنكار لما قبضه و تسلمه.

(وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا)و يكفيكم أن الله شاهد عليكم و محاسب لكم على ما فعلتم 6

تفسير آخر (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم)

فقه التعامل بين الزوجين(ص: 10)و من عوامل النجاح فى المعاملات بين الزوجين: -

1-أن يعرف كل منهما خصال الآخر و ما يغضبه و ما يرضيه و يحرص على فعل ما يريح صاحبه ما دام فى حدود المسموح به شرعًا

2-فعلى الرجل أن يعرف خصال المرأة و ما جُبلت عليه حتى يسوسها سياسة طيبة و يصل بها إلى ما يرضى الله -سبحانه و تعالى- عنهما و يكون سببًا فى سعادتها وسعادة أولادهما فى الدنيا و الآخرة

*فمن ذلك أن يعلم أن من خصال النساء أنهن ناقصات العقل والدين

ففى الصحيح(29) من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال:-

(يا معشر النساء تصدقن فإنى أُريتكن أكثر أهل النار فقلن:-و بم يا رسول الله؟

قال:-تكثرن اللعن و تكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل و دين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن

قلن يا رسول الله و ما نقصان ديننا و عقلنا يا رسول الله؟

قال:-أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟قلن: بلى قال:-

فذلك من نقصان عقلها أليس إذا حاضت لم تُصلِّ و لم تَصمْ؟قلن: بلى قال:فذلك من نقصان دينها

*ويتأيد فعل هذا -أى:كون المرأة ناقصة العقل-بأن كثيرًا من المفسرين قالوا فى تأويل قول الله تعالى:

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قيامًا)[النساء: 5]بأن المراد بالسفهاء:-النساء و الصبيان.

و قد قال النبىﷺ :-المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها و إن استمتعت بها استمتعت بها و فيها عوج

و تقدم حديث النبى ﷺ .. واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته و إن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرًا

و قال سبحانه و تعالى:-(أو من يُنشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين)[الزخرف: 18].

و قال سبحانه و تعالى:-(وللرجال عليهن درجة)[البقرة: 228]فهذا كله مما يدل ضعف عقل النساء و نقصه.

فإذا كان الأمر كذلك و علم الرجل أن هذا هو حال المرأة من نقصان العقل تعيَّن عليه أن يعاملها بناء على عقلها

فمن المعلوم أن الرجل يتعامل مع الناس على قدر عقولهم و راجح العقل يتعامل مع ضعيف العقل و الطفل و المجنون على قدر عقولهم

*فإذا آخذ الرجل العقل الطفل الصغير بكل ما يصدر منه حكم الناس على هذا الرجل بقلة العقل

و قال قائلهم: انظروا إلى هذا الرجل ينزل بعقله إلى عقول الأطفال والله -عز وجل- يقول فى شأن أهل الإيمان:-(وإذا مروا باللغو مروا كرامًا)[الفرقان: 72]

فكذلك فليكن تعامل الرجل مع المرأة لا يؤاخذها بكل خطأ يصدر منها بل إن أخطأت عشرة أخطاء مثلاً آخذها بثلاثةٍ أو أربعة أو خمسة و ترك المؤاخذة على الباقى

أما إذا آخذها بالعشرة أخطاء فقد جعل عقله كعقلها و حكم على نفسه بأنه رجل ناقص العقل سفيه.

***مصنف ابن أبي شيبة 19263 - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما**

قَالَ:-إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَزَيَّنَ لِلْمَرْأَةِ كَمَا أُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لِي الْمَرْأَةُ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:-

{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ} [البقرة: 228] **وَ مَا أُحِبُّ أَنْ أَسْتَنْظِفَ جَمِيعَ حَقِّي عَلَيْهَا لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:**

{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: 228]

و معنى كلام ابن عباس رضى الله عنهما:-

أننى لا أحب أن آخذ حقى كاملاً من امرأتى و إنما أترك لها بعضه لأن الله يقول: (وللرجال عليهن درجة) [البقرة: 228]

و نحو هذا فى قوله (وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثًا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرَّف بعضه وأعرض عن بعض) [التحريم: 3]

فرسول الله حدَّث بعض أزواجه -اللواتى هن من خير النساء و فضليات النساء- بحديث و أوصاها أن لا تخبر به أحدًا فذهبت وأخبرت به فأطلع الله نبيه ﷺ على الذى كان من أمرها

فلما جاء العتاب ما عاتبها الرسول بكل ما صدر منها بل كما قال الله (عرَّف بعضه وأعرض عن بعض) [التحريم: 3]

و من المعلوم أن الله -سبحانه و تعالى-حث أهل الفضل على العفو عن زلات من هم دونهم

قال الله تعالى: (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) [النور: 22] **6**

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ
مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ
فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا
إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ
لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ
وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ
فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

كان العرب فى الجاهلية–من جبروتهم و قسوتهم لا يورثون الضعفاء :–كالنساء والصبيان
و يجعلون الميراث للرجال الأقوياء لأنهم–بزعمهم–أهل الحرب و القتال و النهب و السلب
فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعًا يستوى فيه:–رجالهم و نساؤهم و أقوياؤهم و ضعفاؤهم
و قدم بين يدي ذلك أمرا مجملا لتتوطَّن على ذلك النفوس.
فيأتى التفصيل بعد الإجمال قد تشوفت له النفوس و زالت الوحشة التى منشؤها العادات القبيحة

المواريث –أكل مال اليتيم 7-12

فقال:(لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ)قسط و حصة(مِّمَّا تَرَكَ)خلَّف(ٱلْوَٰلِدَانِ)الأب و الأم
(وَٱلْأَقْرَبُونَ)عموم بعد خصوص(وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ)
فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف و العادة و أن يرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئا مقدرا؟
فقال تعالى: (نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)قد قدره العليم الحكيم. و سيأتى – إن شاء الله– تقدير ذلك.
و أيضا فهاهنا توهم آخر لعل أحدا يتوهم أن النساء و الولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير
فأزال ذلك بقوله:–(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ)فتبارك الله أحسن الحاكمين 7

*و من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب فقال:-(وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ)قسمة المواريث
(أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ)الأقارب غير الوارثين بقرينة قوله:–(ٱلْقِسْمَةَ)لأن الوارثين من المقسوم عليهم.
(وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ)المستحقون من الفقراء.

(فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ)أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذى جاءكم بغير:-كد و لا تعبو لا عناء و لا نَصَب فإن نفوسهم متشوفة إليه و قلوبهم متطلعة فاجبروا خواطرهم بما لا يضركم و هو نافعهم.

*و يؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع و تشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان➔ ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر كما كان النبى ﷺيقول:البخارى 2557 –عن أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ:-

إِذَا أَتَى أَحَدَكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يُجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً(لقمة)أَوْ لُقْمَتَيْنِ أَوْ أُكْلَةً أَوْ أُكْلَتَيْنِ فَإِنَّهُ وَلِىَ عِلاَجَهُ»(تولى صنعه وتجهيزه)

و كان الصحابة رضى الله عنهم–إذا بدأت باكورة أشجارهم–أتوا بها رسول الله ﷺفبرَّك عليها و نظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك علما منه بشدة تشوفه لذلك و هذا كله مع إمكان الإعطاء

فإن لم يمكن ذلك – لكونه حق سفهاء أو ثَم أهم من ذلك– فليقولوا لهم قولا معروفا لقوله

(وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا)يردوهم ردًّا جميلا بقول حسن غير فاحش و لا قبيح ٨

(وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ)

*قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عباس:-هَذَا فِي الرَّجُلِ يَحْضُره الْمَوْتُ فَيَسْمَعُهُ الرَّجُلُ يُوصِى بِوَصِيَّةٍ تَضر بِوَرَثَتِهِ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ وَ يُوَفِّقَهُ وَ يُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ وَ لْيُنْظَرْ لِوَرَثَتِهِ كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصْنَعَ بِوَرَثَتِهِ إِذَا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ.

*البخارى2742-عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَالَ:-

جَاءَ النَّبِيُّ ﷺيَعُودُنِي وَ أَنَا بِمَكَّةَ وَ هُوَ يَكْرَهُ أَنْ يَمُوتَ بِالأَرْضِ الَّتِى هَاجَرَ مِنْهَا قَالَ:-«يَرْحَمُ اللَّهُ ابْنَ عَفْرَاءَ» (هو سعد بن خولة ويحتمل أن ابن عفراء لقب له وقيل غير ذلك)

قُلْتُ:-يَا رَسُولَ اللَّهِ أُوصِى بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ:-«لاَ» قُلْتُ:-فَالشَّطْرُ قَالَ: «لاَ» قُلْتُ: الثُّلُثُ

قَالَ:-«فَالثُّلُثُ وَ الثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً(فقراء جمع عائل وهو الفقير) يَتَكَفَّفُونَ(من التكفف وهو بسط الكف للسؤال أو سؤال الناس كفافا من الطعام) النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ

وَإِنَّكَ مَهْمَا أَنْفَقْتَ مِنْ نَفَقَةٍ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ حَتَّى اللُّقْمَةُ الَّتِى تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ

وَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَكَ(يطيل عمرك)فَيَنْتَفِعَ بِكَ نَاسٌ(من المسلمين بالغنائم التي ستغنم مما يفتح الله على يديك من بلاد الشرك)

وَ يُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ(وهم الذين سيهلكون على يديك من أهل الباطل و الشرك و هذا معجزة من معجزاته ﷺحيث أخبر عنه قبل وقوعه و وقع كما أخبر به فقد فتح الله تعالى على يديه بلاد العراق) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا ابْنَةٌ

*البخارى 2743- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:-

لَوْ غَضَّ النَّاسُ(نقضوا فى وصاياهم عن الثلث و اكتفوا بالربع)إِلَى الرُّبْعِ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ: «الثُّلُثُ وَ الثُّلُثُ كَثِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ»

قيل: –

1–إن هذا خطاب لمن يحضر مَنْ حضره الموت و أجنف فى وصيته أن يأمره بالعدل فى وصيته و المساواة فيها بدليل قوله:(وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا)سدادا موافقا للقسط و المعروف.

و أنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم.

2–و قيل:–إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين و الصغار و الضعاف أن يعاملوهم فى مصالحهم الدينية و الدنيوية بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم من ذريتهم الضعاف

(فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ)فليراقبوا الله فيمن تحت أيديهم من اليتامى و غيرهم و ذلك:-

1-بحفظ أموالهم 2-حسن تربيتهم3-دَفْع الأذى عنهم4-عدم إهانتهم5–القيام عليهم6–إلزامهم لتقوى الله.

(وَلْيَقُولُوا)لهم(قَوْلًا سَدِيدًا)موافقا للعدل و المعروف 9

﴿لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾

كنت مريضًا مرضًا شديدًا، وكان كل ما يؤرقني هو حياة أولادي من بعدي؛ كيف سيعيشون؟ ومن سيربيهم؟ لو أنهم كانوا أصلب عودًا وأشدَّ قوةً وأسنَّ مما هم عليه؛ لمِتُّ مطمئنًا على حالهم.

وزارني يومًا أحد الصالحين، فبثثت إليه همي، فقرأ علي الآية الكريمة: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[1] النساء: ٩.

لقد كنت أحفظ سورة النساء عن ظهر قلب، ولكن الآية كأنها نزلت غضة طرية لتوها، نزلت على روحي بردًا وسلامًا، وعلمت أن الله هو الرزاق الحافظ لي ولهم، وسكنت نفسي لهذا الكلام جدا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

*و لما أمرهم بذلك زجرهم عن أكل أموال اليتامى و توعد على ذلك أشد العذاب فقال:–

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا)بغير حق

و هذا القيد يخرج به ما تقدم:–

1–من جواز الأكل للفقير بالمعروف 2–و من جواز خلط طعامهم بطعام اليتامىفمَنْ أكلها ظلمًا

فـــ(إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ)فإن الذى أكلوه(نَارًا)تتأجج فى أجوافهم و هم الذين أدخلوها فى بطونهم

(وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا)نارًا محرقة متوقدة. و هذا أعظم وعيد ورد فى الذنوب يدل على:–

شناعة أكل أموال اليتامى و قبحها و أنها موجبة لدخول النار فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر. نسأل الله العافية.

*أبي داود2871 -عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:-لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}[الأنعام: 152] وَ {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} [النساء: 10] الْآيَةَ

انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ وَ شَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ فَجَعَلَ يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِهِ فَيُحْبَسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺفَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:-

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ}[البقرة: 220]

فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِ وَ شَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِ

*البخارى2766-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ اجْتَنِبُوا(ابتعدوا)السَّبْعَ المُوبِقَاتِ(المهلكات)»

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَ مَا هُنَّ؟ قَالَ:.....وَ أَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ» 10

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

*الصحيح المسند من أسباب النزول:البخارى4577 - عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ:-

«عَادَنِي النَّبِيُّ ﷺ وَ أَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ(بطن من الخزرج كانوا يسكنون فى أطراف المدينة)مَاشِيَيْنِ

فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لَا أَعْقِلُ شَيْئًا فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ»

فَقُلْتُ:-مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟فَنَزَلَتْ:-{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ}[النساء: 11]

*سبب آخر للآية أخرج الترمذى عن جابر ﷺ قال:-

جاءت امرأة سعد بن الربيع فقالت يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيدا وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا فقال:-يقضى الله فى ذلك"

فنزلت آية المواريث فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمها فقال:-

أعط ابنتى سعد الثلثين و أمهما الثمن و ما بقى فهو لك".و قصة جابر أصح لأنها متفق عليها

و أما قصة بنات سعد بن الربيع ففيها عبد الله بن محمد بن عقيل و هو صدوق ضعيف الحفظ على أنه لا تنافى بين القصتين فيحتمل أنها نزلت فيهما معا.قال الحافظ فى الفتح:-

و يحتمل أن يكون نزول أولها فى قصة البنتين وآخرها و هى قوله{وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً}

فى قصة جابر و يكون مراد جابر فنزلت {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ}

أى ذكر الكلالة المتصل بهذه الآية و الله أعلم ا. هـ و أقول فى كلام الحافظ رحمه الله نظر فإن قوله:-

{وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً}فى ميراث الأخوة لأم فالأولى أن يقال:-

لا مانع من نزول الآية فى الأمرين معا كما قرره هو قبل والله أعلم.

*هذه الآيات و الآية التى هى آخر السورة هن آيات المواريث المتضمنة لها.

فإنها مع حديث عبد الله بن عباس الثابت فى البخارى 6732 –عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:–أَلْحِقُوا الفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا(أعطوا الأنصباء المقدرة فى كتاب الله تعالى لأصحابها المستحقين لها)

فَمَا بَقِيَ(فما زاد من التركة عن أصحاب الفروض)فَهُوَ لِأَوْلَى(لأقرب وارث من العصبات)رَجُلٍ ذَكَرٍ»

المشتملات على جُلِ أحكام الفرائض بل على جميعها كما سترى ذلك إلا ميراث الجدات فإنه غير مذكور فى ذلك.

*لكنه قد ثبت فى السنن عن المغيرة بن شعبة و محمد بن مسلمة أن النبى ﷺ أعطى الجدة السدس مع إجماع العلماء على ذلك فقوله تعالى:–(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ)

إذا مات أحد منكم و ترك أولادًا:-ذكورًا و إناثًا فميراثه كله لهم:-

يا معشر الوالِدِين عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم لتقوموا بمصالحهم الدينية و الدنيوية فتعلمونهم و تؤدبونهم و تكفونهم عن المفاسد و تأمرونهم بطاعة الله و ملازمة التقوى على الدوام لقوله(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ)التحريم: ٦ فالأولاد عند والديهم موصى بهم

فإما أن:-1-يقوموا بتلك الوصية 2-و إما أن يضيعوها فيستحقوا بذلك الوعيد و العقاب.

*و هذا مما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم عليهم.

*ثم ذكر كيفية إرثهم فقال:-(لِلذَّكَرِ)أى:الأولاد للصلب و الأولاد للابن للذكر

(مِثۡلُ حَظِّ)نصيب(ٱلۡأُنثَيَيۡنِ)إذا لم يكن هناك وارث غيرهم.

*إن لم يكن معهم صاحب فرض أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك

و قد أجمع العلماء على ذلك و أنه – مع وجود أولاد الصلب –فالميراث لهم.

و ليس لأولاد الابن شيء حيث كان أولاد الصلب ذكورًا و إناثا هذا مع اجتماع الذكور و الإناث.

و هنا حالتان: انفراد الذكور و سيأتى حكمها.

*و انفراد الإناث و قد ذكره بقوله(فَإِن)ترك(كُنَّ نِسَآءٗ)بنات(فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ)بنات صلب أو بنات ابن ثلاثا فأكثر

(فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ)ابنة (وَٰحِدَةٗ) بنتا أو بنت ابن(فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ)و لوالِدَى الميت

(فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ)و هذا إجماع.

*بقى أن يقال:-من أين يستفاد أن للابنتين الثنتين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله: (وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ):-

فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة انتقل الفرض عن النصف و لا ثَمَّ بعده إلا الثلثان.

و أيضا فقوله:-(لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنْثَيَيْنِ)إذا خلَّف ابنًا وبنتًا فإن الابن له الثلثان

*و قد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين فدل ذلك على أن للبنتين الثلثين.

و أيضًا فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها –و هو أزيد ضررًا عليها من أختها فأخذها له مع أختها من باب أولى و أحرى.

و أيضا فإن قوله تعالى فى الأختين: –(فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ)نص فى الأختين الثنتين.

فإذا كان الأختان الثنتان – مع بُعدهما– يأخذان الثلثين فالابنتان – مع قربهما– من باب أولى و أحرى.

و قد أعطى النبى ﷺابنتى سعد الثلثين كما في الصحيح.

*بقى أن يقال: فما الفائدة فى قوله: (فَوْقَ اثْنَتَيْنِ) ؟

قيل:–الفائدة فى ذلك–و الله أعلم–أنه ليعلم أن الفرض الذى هو الثلثان لا يزيد بزيادتهن على الثنتين بل من الثنتين فصاعدًا.

*و دلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة و بنت ابن أو بنات ابن فإن لبنت الصلب النصف
و يبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس فيعطى بنت الابن أو بنات الابن
و لهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين.و مثل ذلك بنت الابن مع بنات الابن اللاتى أنزل منها.
و تدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين أنه يسقط مَنْ دونهن مِنْ بنات الابن لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين و قد تم.

*فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيَد من الثلثين وهو خلاف النص.
و كل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء و لله الحمد.

*و دل قوله:–(مِمَّا تَرَكَ)أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت من عقار و أثاث و ذهب و فضة و غير ذلك حتى الدية التى لم تجب إلا بعد موته و حتى الديون التى فى الذمم .

*ثم ذكر ميراث الأبوين فقال:–(وَلِأَبَوَيۡهِ)أبوه و أمه

(لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ)ذكرًا كان أو أنثى واحدًا أو أكثر.
أى:–ولد صلب أو ولد ابن ذكرًا كان أو أنثى واحدًا أو متعددًا.
فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.
و أما الأب فمع الذكور منهم لا يستحق أزيد من السدس

*فإن كان الولد أنثى أو إناثا و لم يبق بعد الفرض شيء – كأبوين و ابنتين– لم يبق له تعصيب.
و إن بقى بعد فرض البنت أو البنات شيء أخذ الأب السدس فرضًا و الباقى تعصيبًا لأننا ألحقنا الفروض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر و هو أولى من الأخ و العم و غيرهما.

(فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ)والداه(فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ)و لأبيه الباقى.
أي: و الباقى للأب لأنه أضاف المال إلى الأب و الأم إضافة واحدة
ثم قدر نصيب الأم فدل ذلك على أن الباقى للأب.
و علم من ذلك أن الأب مع عدم الأولاد لا فرض له بل يرث تعصيبا المال كله أو ما أبقت الفروض
لكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين – و يعبر عنهما بالعمريتين–
فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه ثم تأخذ الأم ثلث الباقي و الأب الباقي.
و قد دل على ذلك قوله: (وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ)أى:ثلث ما ورثه الأبوان.
و هو في هاتين الصورتين إما سدس فى زوج و أم و أب و إما ربع فى زوجة و أم و أب.
فلم تدل الآية على إرث الأم ثلثَ المال كاملا مع عدم الأولاد حتى يقال:–

إن هاتين الصورتين قد استثنيتا من هذا.

*و يوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء فيكون من رأس المال و الباقي بين الأبوين.

*و لأنا لو أعطينا الأم ثلث المال لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصفَ السدس و هذا لا نظير له فإن المعهود مساواتها للأب أو أخذه ضعفَ ما تأخذه الأم

(فَإِن كَانَ لَهُۥٓ)أى للميت(إِخۡوَةٌ)اثنان فأكثر ذكورًا كانوا أو إناثًا

(فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ)و للأب الباقى و لا شيء للإخوة.و هذا التقسيم للتركة إنما يكون

*أشقاء أو لأب أو لأم ذكورًا كانوا أو إناثًا وارثين أو محجوبين بالأب أو الجد لكن قد يقال: ليس ظاهرُ قوله: (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ)شاملا لغير الوارثين بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة إلا الإخوة الوارثون.

و يؤيده أن الحكمة فى حجبهم لها عن الثلث لأجل أن يتوفر لهم شيء من المال و هو معدوم و الله أعلم

و لكن بشرط كونهم اثنين فأكثر و يشكل على ذلك إتيان لفظ « الإخوة » بلفظ الجمع.

و أجيب عن ذلك بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع و يصدق ذلك باثنين.

*و قد يطلق الجمع و يراد به الاثنان كما فى قوله تعالى عن داود و سليمان(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)

و قال فى الإخوة للأم:(وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ)فأطلق لفظ الجمع و المراد به اثنان فأكثر بالإجماع.

*فعلى هذا لو خلف أمًّا و أبًا و إخوة كان للأم السدس و الباقى للأب فحجبوها عن الثلث مع حجب الأب إياهم إلا على الاحتمال الآخر فإن للأم الثلث و الباقى للأب

ثم قال تعالى:– (مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي)بها الميت(بِهَآ)فى حدود الثلث (أَوۡ)إخراج ما عليه من (دَيۡنٍۗ)

*هذه الفروض و الأنصباء و المواريث إنما ترد و تستحق بعد نزع الديون التى على الميت لله أو للآدميين

و بعد الوصايا التى قد أوصى الميت بها بعد موته

فالباقى عن ذلك هو التركة الذى يستحقه الورثة.

*و قدم الوصية مع أنها مؤخرة عن الدين للاهتمام بشأنها لكون إخراجها شاقًّا على الورثة

و إلا فالديون مقدمة عليها و تكون من رأس المال.

و أما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل للأجنبى الذي هو غير وارث و أما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة

(ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ)الذين فُرِض لهم الإرث

فلو ردَّ تقدير الإرث إلى عقولكم و اختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم لنقص العقول و عدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن فى كل زمان و مكان

(لَا تَدۡرُونَ)تعرفون(أَيُّهُمۡ)أَيُّ الأولادِ أو الوالِدين

(أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ)أنفع لهم و أقرب لحصول مقاصدهم الدينية و الدنيوية فلا تفضلوا واحدًا منهم على الآخر.

(فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ)فرضها الله

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا)الذى قد أحاط بكل شىء علمًا و أحكم ما شرعه

و قدَّر ما قدَّره على أحسن تقدير لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان و مكان و حال١١

۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ
فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ
وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ
مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً
أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ١٢ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣
وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤

(وَلَكُمۡ)أيها الرجال-

(نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ)بعد وفاتهن

(إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ)ذكرًا كان أو أنثى

(فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ)

(مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ)من بعد إنفاذ وصيتهن الجائزة

(أَوۡ دَيۡنٖۚ)أو ما يكون عليهن من دَيْن لمستحقيه.

(وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ)و لأزواجكم -أيها الرجال- الربع مما تركتم

(إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ)إن لم يكن لكم ابن أو ابنة منهن أو من غيرهن

(فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ)فإن كان لكم ابن أو ابنة

(فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ)يقسم الربع أو الثمن بينهن

فإن كانت زوجة واحدة كان هذا ميراثًا لها

(مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ)من بعد إنفاذ ما كنتم أوصيتم به من الوصايا الجائزة

(أَوۡ دَيۡنٖۗ)أو قضاء ما يكون عليكم من دَيْن.

(وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ)و إن مات رجل أو امراة وليس له أو لها ولد و لا والد

(وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ)و له أو لها أخ أو أخت من أم

(فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ)فإن كان الإخوة أو الأخوات لأم أكثر من ذلك

(فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ)يقسم بينهم بالسوية لا فرق بين الذكر و الأنثى و هذا الذي فرضه الله للإخوة والأخوات لأم يأخذونه ميراثًا لهم

(مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ)من بعد إنفاذ وصيته إن كان قد أوصى بشيء

(أَوْ دَيْنٍ)أو قضاء ديون الميت

(غَيْرَ مُضَآرٍّ)لا ضرر فيه على الورثة.

(وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ)بهذا أوصاكم ربكم وصية نافعة لكم.

(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ)و الله عليم بما يصلح خلقه (حَلِيمٌ) لا يعاجلهم بالعقوبة 12

قال السعدى رحمه الله:ثم قال تعالى: (وَلَكُمْ) أيها الأزواج

(نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ)و يدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه ولد الصلب

أو ولد الابن الذكر و الأنثى الواحد و المتعدد

الذي من الزوج أو من غيره و يخرج عنه ولد البنات إجماعًا.

ثم قال تعالى:–

(وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ)أى: من أم كما هى فى بعض القراءات.

و أجمع العلماء على أن المراد بالإخوة هنا الإخوة للأم

فإذا كان (يُورَثُ كَلَٰلَةً)أى:ليس للميت والد ولا ولد

أي: لا أب و لا جد و لا ابن و لا ابن ابن و لا بنت و لا بنت ابن و إن نزلوا. –و هذه هي الكلالة كما فسرها بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه و قد حصل على ذلك الاتفاق و لله الحمد.

(فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا)من الأخ و الأخت

(ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ)أى: من واحد

(فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ)أى: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين.

–و دل قوله:(فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ)أن ذَكَرهم وأنثاهم سواء لأن لفظ « التشريك » يقتضى التسوية.

و دل لفظ(الْكَلالَةِ)على أن الفروع و إن نزلوا و الأصولَ الذكور و إن علوا يُسقطون أولاد الأم لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة فلو لم يكن يورث كلالة لم يرثوا منه شيئًا اتفاقًا.

و دل قوله:(فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ)أن الإخوة الأشقاء يَسقُطون في المسألة المسماة بالحمارية.

و هى: زوج و أم و إخوة لأم و إخوة أشقاء. للزوج النصف و للأم السدس و للأخوة للأم الثلث و يسقط الأشقاء لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعا لما فرّق الله حكمه.

و أيضا فإن الإخوة للأم أصحاب فروض و الأشقاء عصبات.

و قد قال النبى ﷺ: –«ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر »– و أهل الفروض هم الذين قدَّر الله أنصباءهم

ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء فيَسْقُط الأشقاء و هذا هو الصواب فى ذلك.

–و أما ميراث الإخوة و الأخوات الأشقاء أو لأب فمذكور في قوله:(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ) الآية.

–فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف و الثنتان لهما الثلثان

و الشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف

و الباقى من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب و هو السدس تكملة الثلثين.

–و إذ استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب كما تقدم في البنات و بنات الابن.

و إن كان الإخوة رجالا و نساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين.

–فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل و الرقيقو المخالف في الدين و المبعض و الخنثى و الجد مع الإخوة لغير أم و العول و الرد و ذوى الأرحام و بقية العصبة و الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟

–قيل: نعم فيه تنبيهات و إشارات دقيقة يعسر فهمها على غير المتأمل تدل على جميع المذكورات.

–فأما (القاتل والمخالف في الدين)فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية فى توزيع المال على الورثة بحسب قربهم و نفعهم الديني و الدنيوى.

–و قد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله:(لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا)

–و قد عُلم أن القاتل قد سعى لمورثه بأعظم الضرر فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث.

–فعُلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث و يقطع الرحم الذي قال الله فيه:(وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن:– « من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه »

و بهذا و نحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له و ذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث و المانعُ الذي هو المخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه

فقوى المانع و منع موجب الإرث الذي هو النسب فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية

–فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى و أحق به فيكون قوله تعالى:(وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)إذا اتفقت أديانهم

–و أما مع تباينهم فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في « جلاء الأفهام »:–و تأمل هذا المعنى في آية المواريث و تعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة كما في قوله تعالى:(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ)إيذانا بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل و التناسب

–و المؤمن و الكافر لا تشاكل بينهما و لا تناسب

فلا يقع بينهما التوارث. و أسرار مفردات القرآن و مركباته فوق عقول العالمين انتهى.

–و أما (الرقيق) فإنه لا يرث و لا يورث

*أما كونه لا يورث فواضح لأنه ليس له مال يورث عنه بل كل ما معه فهو لسيده.

*و أما كونه لا يرث فلأنه لا يملك فإنه لو ملك لكان لسيده و هو أجنبي من الميت فيكون مثل قوله تعالى: – لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ (وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ) (فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ)

و نحوها لمن يتأتى منه التملك

–و أما الرقيق فلا يتأتى منه ذلك فَعُلم أنه لا ميراث له.

–و أما مَنْ بعضه حر و بعضه رقيق فإنه تتبعض أحكامه فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبه الله في المواريث لكون ما فيه من الحرية قابلا للتملك و ما فيه من الرق فليس بقابل لذلك

فإذا يكون المبعض يرث و يورث و يحجب بقدر ما فيه من الحرية.

و إذا كان العبد يكون محمودا مذموما مثابا و معاقبا بقدر ما فيه من موجبات ذلك فهذا كذلك.

–و أما (الخنثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحا ذكوريته أو أنوثيته أو مشكلا.

–فإن كان واضحا فالأمر فيه واضح.إن كان ذكرا فله حكم الذكور و يشمله النص الوارد فيهم.

–و إن كان أنثى فله حكم الإناث و يشملها النص الوارد فيهن.

–و إن كان مشكلا فإن كان الذكر و الأنثى لا يختلف إرثهما – كالإخوة للأم– فالأمر فيه واضح

–و إن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته و بتقدير أنوثيته و لم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك

لم نعطه أكثر التقديرين لاحتمال ظلم من معه من الورثة و لم نعطه الأقل لاحتمال ظلمنا له.

فوجب التوسط بين الأمرين و سلوكُ أعدل الطريقين قال تعالى:-(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

و ليس لنا طريق إلى العدل فى مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور.

و (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا) (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ).

و أما(ميراث الجد)مع الإخوة الأشقاء أو لأب و هل يرثون معه أم لا

فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق ﷺ و أن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم كما يحجبهم الأب.و بيان ذلك: أن الجد أب فى غير موضع من القرآن كقوله تعالى: الآية.

و قال(إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ يوسف ﷺ: (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)فسمى الله الجد و جد الأب أبا

فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب يرث ما يرثه الأب و يحجب من يحجبه.

–و إذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بني الإخوة و الأعمام و بنيهم و سائر أحكام المواريث فينبغى أيضا أن يكون حكمُه حكمَه في حجب الإخوة لغير أم.

–و إذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟

–و إذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء على أنه يحجبه. فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟

فليس مع مَنْ يورِّث الإخوةَ مع الجد نص ولا إشارة و لا تنبيه و لا قياس صحيح.

–و أما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن و ذلك أن الله تعالى قد فرض و قدر لأهل المواريث أنصباء و هم بين حالتين:–

1–إما أن يحجب بعضهم بعضًا أو لا.فإن حجب بعضهم بعضا فالمحجوب ساقط لا يزاحِم و لا يستحق شيئا

و إن لم يحجب بعضهم بعضا فلا يخلو إما أن:–

–لا تستغرق الفروض التركة

–أو تستغرقها من غير زيادة و لا نقص

–أو تزيد الفروض على التركة

ففى الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملا.

–و في الحالة الأخيرة و هى ما إذا زادت الفروض على التركة فلا يخلو من حالين:–

إما أن ننقص بعضَ الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له و نكمل للباقين منهم فروضهم

و هذا ترجيح بغير مرجح و ليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر فتعينت الحال الثانية

و هى: أننا نعطى كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان و نحاصص بينهم كديون الغرماء الزائدة على مال الغريم

و لا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

*و بعكس هذه الطريقة بعينها يعلم (الرد):-

فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضُهم التركةَ و بقى شيء ليس له مستحق من عاصب قريب و لا بعيد فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح و إعطاؤه غيرَهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل و معارضة لقوله:(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)فتعين أن يُرَدَّ على أهل الفروض بقدر فروضهم.

-و لما كان الزوجان ليسا من القرابة لم يستحقا زيادة على فرضهم المقدر هذا عند من لا يورِّث الزوجين بالرد و هم جمهور القائلين بالرد فعلى هذا تكون علة الرد كونه صاحب فرض قريبا

-و على القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يُرَدُّ عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزادان بالرد كغيرهما فالعلة على هذا كونه وارثا صاحب فرض

فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنة و القياس الصحيح والله أعلم.

-و بهذا يعلم أيضا (ميراث ذوي الأرحام) فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض و لا عاصبا و بقى الأمر دائرا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب و بين كون ماله يرجع إلى أقاربه المدلين بالورثة المجمع عليهم و يدل على ذلك قوله تعالى:-(وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ)

فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره فتعين توريث ذوي الأرحام.

و إذا تعين توريثهم فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله. و أن بينهم و بين الميت وسائط صاروا بسببها من الأقارب. فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط. والله أعلم.

و أما(ميراث بقية العصبة)كالبنوة و الأخوة و بنيهم و الأعمام و بنيهم إلخ فإن النبي ﷺقال:-

«ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى رجل ذكر»و قال تعالى:-(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ)

فإذا ألحقنا الفروض بأهلها و لم يبق شيء لم يستحق العاصب شيئًا و إن بقى شيء أخذه أولى العصبة و بحسب جهاتهم و درجاتهم.

فإن جهات العصوبة خمس:-

1- البنوة 2-ثم الأبوة 3-ثم الأخوة و بنوهم 4- ثم العمومة و بنوهم 5-ثم الولاء

فيقدم منهم الأقرب جهة. فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة فإن كانوا فى منزلة واحدة فالأقوى و هو الشقيق فإن تساووا من كل وجه اشتركوا. و الله أعلم.

-و أما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات يأخذن ما فضل عن فروضهن فلأنه ليس في القرآن ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات.

فإذا كان الأمر كذلك و بقى شيء بعد أخذ البنات فرضهن فإنه يعطى للأخوات و لا يعدل عنهن إلى عصبة أبعد منهن كابن الأخ و العم و من هو أبعد منهم. والله أعلم.

أى:تلك التفاصيل التى ذكرها فى المواريث حدود الله التى يجب الوقوف معها و عدم مجاوزتها و لا القصور عنها

ثواب الطائعين 13

و فى ذلك دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصباء الوارثين.

ثم قوله تعالى(تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ)تلك الأحكام الإلهية التى شرعها الله فى اليتامى و النساء و المواريث شرائعه الدالة على أنها مِن عند الله العليم الحكيم.

فالوصية للوارث بزيادة على حقه يدخل فى هذا التعدى مع قولهﷺ:-« لا وصية لوارث »

*ثم ذكر طاعة الله و رسوله و معصيتهما عموما ليدخل فى العموم لزوم حدوده فى الفرائض أو ترك ذلك

فقال:-(وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ)بامتثال أمرهما الذي أعظمه طاعتهما فى التوحيد

ثم الأوامر على اختلاف درجاتها و اجتناب نهيهما الذى أعظمُه الشرك بالله ثم المعاصى على اختلاف طبقاتها

*فَلَمْ يَزِدْ بَعْضُ الْوَرَثَةِ وَ لَمْ يَنْقُصْ بَعْضًا بِحِيلَةٍ وَ وَسِيلَةٍ بَلْ تَرَكَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَ فَرِيضَتِهِ وَ قِسْمَتِهِ

(يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا)

فمن أدى الأوامر و اجتنب النواهى فلا بد له من دخول الجنة و النجاة من النار.

عقوبة العاصين 14

(وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ)

الذى حصل به النجاة من سخطه و عذابه و الفوز بثوابه و رضوانه بالنعيم المقيم الذى لا يصفه الواصفون 13

(وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

و يدخل فى اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصى فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصى فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته و طاعة رسوله.و رتب دخول النار على معصيته و معصية رسوله

*فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.

*و من عصى الله و رسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه ←دخل النار و خُلِّد فيها

*و من اجتمع فيه معصية و طاعة كان فيه من موجب الثواب و العقاب بحسب ما فيه من الطاعة و المعصية.

*و قد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد غير مخلدين في النار

فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

(وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ)لِكَوْنِهِ غيَّرَ مَا حَكَمَ اللَّهُ بِهِ وَ ضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ.

وَ هَذَا إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ وَ حَكَمَ بِهِ وَ لِهَذَا يُجَازِيهِ بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم14

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ
فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا
مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾
إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ
وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ
فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

(وَٱلَّٰتِي)أى:–النساء (يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ)أى:–الزنا و وصفها بالفاحشة لشناعتها و قبحها.

(فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ)أى:من رجالكم المؤمنين العدول.

(فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ)احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة

و أيضا فإن الحبس من جملة العقوبات

عقوبة الزنا قبل النسخ و انواع التوبة 15-18

(حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ)أى:هذا منتهى الحبس.

(أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا)أى:طريقا غير الحبس فى البيوت

و هذه الآية ليست منسوخة و إنما هى مغياة إلى ذلك الوقت فكان الأمر فى أول الإسلام كذلك حتى جعل الله لهن سبيلا و هو:–رجم المحصن و جلد غير المحصن.

*مسلم (1690) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-
«خُذُوا عَنِّى خُذُوا عَنِّى قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَ نَفْىُ سَنَةٍ وَ الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ
(ليس هو على سبيل الاشتراط بل حد البكر الجلد و التغريب سواء زنى ببكر أم ثيب وحد الثيب الرجم سواء زنى بثيب أم ببكر فهو شبيه بالتقييد الذى يخرج على الغالب)
جَلْدُ مِائَةٍ وَ الرَّجْمُ»
*كَانَ الْحُكْمُ فِى ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا زَنَتْ فَثَبُتَ زِنَاهَا بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ حُبِست فِى بَيْتٍ فَلَا تُمكن مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه:-كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ النُّورِ فَنَسَخَهَا بِالْجَلْدِ أَوِ الرَّجْمِ 15

(و)كذلك(وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا)أى:–الفاحشة(مِنكُمۡ)من الرجال و النساء

(فَـَٔاذُوهُمَاۖ)بالقول و التوبيخ و التعيير و الضرب الرادع عن هذه الفاحشة

فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون و النساء يحبسن و يؤذين.

فالحبس غايته إلى الموت و الأذية نهايتها إلى التوبة و الإصلاح

*لهذا قال:–(فَإِن تَابَا)أى:رجعا عن الذنب الذى فعلاه و ندما عليه و عزما على أن لا يعودا

(وَأَصۡلَحَا)العمل الدال على صدق التوبة

(فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ)أى:عن أذاهم–لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا)أى:كثير التوبة على المذنبين الخطائين عظيم الرحمة و الإحسان

الذى – من إحسانه– وفقهم للتوبة و قبلها منهم و سامحهم عن ما صدر منهم.

*و يؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا:–

1– لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين

2–و من باب أولى و أحرى اشتراط عدالتهم لأن الله تعالى شدد فى أمر هذه الفاحشة سترًا لعباده

3–حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات 4–و لا مع الرجال و لا ما دون أربعة.

5–و لا بد من التصريح بالشهادة كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة و تومئ إليه هذه الآية لما قال:–

(فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ)لم يكتف بذلك حتى قال:–(فَإِنْ شَهِدُوا)

أى:لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عيانًا من غير تعريض و لا كناية.

و يؤخذ منهما أن الأذية بالقول و الفعل و الحبس قد شرعه الله تعزيرًا لجنس المعصية الذي يحصل به الزجر 16

(إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ)توبة الله على عباده نوعان:–1–توفيق منه للتوبة 2–و قبول لها بعد وجودها من العبد

فأخبر هنا–أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه:–1–كرما منه 2–و جودا

(لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ)لمن عمل السوء أى: المعاصى

(بِجَهَٰلَةٖ)أى:–جهالة منه :–

1–بعاقبتها 2–و إيجابها لسخط الله و عقابه 3–و جهل منه بنظر الله و مراقبته له

4–و جهل منه بما تئول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه

فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار و إن كان عالما بالتحريم

*بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقبا عليها

(ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ)يحتمل أن يكون المعنى:–

1–ثم يتوبون قبل معاينة الموت 2–و يحتمل أن يكون معنى قوله:–(مِنْ قَرِيبٍ)

أى: قريب من فعلهم للذنب الموجب للتوبة فيكون المعنى: -

*أن من بادر إلى :-1-الإقلاع من حين صدور الذنب 2-و أناب إلى الله 3-و ندم عليه فإن الله يتوب عليه

بخلاف:-1-من استمر على ذنوبه 2-و أصر على عيوبه حتى صارت فيه صفاتٍ راسخةً

فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة

و الغالب أنه:- 1-لا يوفق للتوبة 2-و لا ييسر لأسبابها

كالذى يعمل السوء على علم تام و يقين و تهاون بنظر الله إليه فإنه سد على نفسه باب الرحمة.

*نعم قد يوفق الله عبده المصر على الذنوب عن عمد و يقين لتوبة تامة التى يمحو بها ما سلف من سيئاته و ما تقدم من جناياته و لكن الرحمة و التوفيق للأول أقرب

(فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ)

فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت و العذاب قطعا.

*و أما بعد حضور الموت فلا يُقبل من العاصين توبة و لا من الكفار رجوع كما قال تعالى عن فرعون:-

(وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ) يونس

*فَأَمَّا مَتَى وَقَعَ الْإِيَاسُ مِنَ الْحَيَاةِ وَ عَايَنَ الْمَلَكَ و حَشْرَجَتِ الرُّوحُ فِي الْحَلْقِ وَ ضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ وَ بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَ غَرْغَرَتِ النَّفْسُ صَاعِدَةً فِي الغَلَاصِمِ- فَلَا تَوْبَةَ مُتَقَبَّلَةٌ حِينَئِذٍ وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ

و لهذا ختم الآية الأولى بقوله:-(وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا)

فمِن علمه أنه يعلم صادق التوبة و كاذبها←فيجازى كلا منهما بحسب ما يستحق بحكمته

و من حكمته:-

1- أن يوفق من اقتضت حكمته و رحمته توفيقَه للتوبة 2-و يخذل من اقتضت حكمته و عدله عدمَ توفيقه 17

و قال هنا:-(وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ)أى:المعاصى فيما دون الكفر.

(حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ)(فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ)غافر: ٨٤

(وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ)أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ وَ شِرْكِهِ لَا يَنْفَعُهُ نَدَمُهُ وَ لَا تَوْبَتُهُ وَ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِدْيَةٌ وَ لَوْ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًَا.

*و ذلك أن التوبة فى هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها إنما تنفع توبة الاختيار.

(أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا) 18 | حقوق النساء و محارمهن و زواج الحر بالأمة 19-25 | الحقوق 19-33

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ)يجوز(لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ)أن تجعلوا نساء آبائكم من جملة تَرِكتهم

تتصرفون فيهن بالزواج منهن أو المنع لهن أو تزويجهن للآخرين(كَرۡهٗا)و هن كارهات لذلك كله

*الصحيح المسند من أسباب النزول:-البخارى4579-عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ﷛

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ}[النساء: 19]

قَالَ: «كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا وَ إِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا وَ إِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ»

*كانوا فى الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته رأى قريبُه كأخيه و ابن عمه و نحوهما أنه أحق بزوجته من كل أحد و حماها عن غيره أحبت أو كرهت. فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها

و إن لم يرضها عضلها فلا يزوجها إلا من يختاره هو و ربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئًا من ميراث قريبه أو من صداقها

(وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ)تضاروهن فى العشرة لتترك ما أصدقها أو بعضه أو حقا من حقوقها عليك أو شيئا من ذلك على وجه القهر لها و الاضرار

(تَعۡضُلُوهُنَّ)تقهروهن

(لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ)الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ امْرَأَةٌ وَ هُوَ كَارِهٌ لِصُحْبَتِهَا وَ لَهَا عَلَيْهِ مَهرٌ فَيَضرها لِتَفْتَدِىَ.

(وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ)و لا يجوز لكم أن تضارُّوا أزواجكم و أنتم كارهون لهن ليتنازلن عن بعض

(مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ)من مهر و نحوه

*و كان الرجل أيضا يعضل زوجته التى يكون يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها

*فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين:–

1–إذا رضيت و اختارت نكاح قريب زوجها الأول كما هو مفهوم قوله:–(كَرۡهٗا)

2–(إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ)و إذا أتين(بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ)كالزنا و الكلام الفاحش و أذيتها لزوجها

فإنه فى هذه الحال يجوز له أن يعضلها عقوبة لها على فعلها لتفتدى منه إذا كان عضلا بالعدل.

*الْعِصْيَانَ وَ النُّشُوزَ

*يَعْنِي بِذَلِكَ الزِّنَا يَعْنِى:إِذَا زَنَتْ فَلَكَ أَنْ تَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِى أَعْطَيْتَهَا و تُضَاجِرهَا حَتَّى تَتْرُكَهُ لَكَ وَ تُخَالِعَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ:-{وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلا أَنْ يَخَافَا أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ}الْآيَةَ [الْبَقَرَة:229]

*وَ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّه يَعُم ذَلِكَ كلّه: الزِّنَا وَ الْعِصْيَانَ وَ النُّشُوزَ و بَذَاء اللِّسَانِ وَ غَيْرَ ذَلِكَ.

يَعْنِى:أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يُبيح مُضَاجَرَتَهَا حَتَّى تُبْرئه مِنْ حَقِّهَا أَوْ بَعْضِهِ وَ يُفَارِقَهَا ثم قال:(وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ)

*طَيِّبُوا أَقْوَالَكُمْ لَهُنَّ و حَسّنُوا أَفْعَالَكُمْ وَ هَيْئَاتِكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ كَمَا تُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا فَافْعَلْ أَنْتَ بِهَا مِثْلَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى:{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[الْبَقَرَة:228]

و فى الترمذى3895 -عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:-قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:-"خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَ أَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِى"

*وَ كَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ ﷺ أَنَّهُ :-

1-جَمِيلِ العِشْرَةِ 2-دَائِمُ البِشْرِ 3-يُداعِبُ أهلَه 4-و يَتَلَطَّفُ بِهِمْ 5-و يُوسِّعُهُم نَفَقَته 6-و يُضاحِك نساءَه

7-حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُسَابِقُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا بِذَلِكَ.قَالَتْ:-سَابَقَنِى رسولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَقْتُهُ وَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ أحملَ اللَّحْمَ ثُمَّ سَابَقْتُهُ بَعْدَ مَا حملتُ اللحمَ فَسَبَقَنِى فَقَالَ:-"هذِهِ بتلْك"

8-وَ يَجْتَمِعُ نِسَاؤُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَبِيتُ عِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَأْكُلُ مَعَهُنَّ الْعَشَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ثُمَّ تَنْصَرِفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَنْزِلِهَا.

9-وَ كَانَ يَنَامُ مَعَ الْمَرْأَةِ مِنْ نِسَائِهِ فِي شِعَارٍ وَاحِدٍ يَضَعُ عَنْ كَتِفَيْهِ الرِّداء وَ يَنَامُ بِالْإِزَارِ

10-وَ كَانَ إِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ يَدْخُلُ مَنْزِلَهُ يَسْمُر مَعَ أَهْلِهِ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَنَامَ يُؤانسهم بِذَلِكَ ﷺ

وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الْأَحْزَابِ: 21] و هذا يشمل المعاشرة القولية و الفعلية

فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف من:-

1-الصحبة الجميلة 2-و كف الأذى 3-و بذل الإحسان 4-و حسن المعاملة

5-و يدخل فى ذلك النفقة و الكسوة و نحوهما

فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها فى ذلك الزمان و المكان و هذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

(فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا)

أى: ينبغى لكم - أيها الأزواج- أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن

فإن فى ذلك خيرًا كثيرًا من ذلك:-

1-امتثال أمر الله 2-و قبولُ وصيته التى فيها سعادة الدنيا و الآخرة.

3-و منها أن إجباره نفسَه-مع عدم محبته لها-فيه:-1-مجاهدة النفس 2-و التخلق بالأخلاق الجميلة.

و ربمـــا أن:-

1-الكراهة تزول و تخلفها المحبة كما هو الواقع فى ذلك

2-و ربما رزق منها ولدا صالحا نفع والديه فى الدنيا و الآخرة.

و هذا كله مع الإمكان فى الإمساك و عدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق و ليس للإمساك محل فليس الإمساك بلازم.

*فى مسلم(1469)عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:-قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:-

«لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً(قال أهل اللغة فركه يفركه إذا أبغضه والفرك البغض) إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»

(وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا) 19

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ
أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ
ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ
ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ
وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

بل متى (وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ)تطليقَ زوجة و تزوجَ أخرى فلا جناح عليكم فى ذلك

و الشرط:-(وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ)أى:المفارقة أو التى تزوجها

(قِنطَارًا)مالا كثيرا-المهر(فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ)بل وفروه لهن و لا تمطلوا بهن.

و فى هذه الآية دلالة على:-

عدم تحريم كثرة المهر مع أن الأفضل و اللائق الاقتداءُ بالنبى ﷺ فى تخفيف المهر.

و وجه الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم و لم ينكره عليهم فدل على عدم تحريمه لكن قد ينهى عن كثرة الصداق إذا تضمن مفسدة دينية و عدم مصلحة تقاوم

ثم قال:-(أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا)فإن هذا لا يحل و لو تحيلتم عليه بأنواع الحيل فإن إثمه واضح20

و قد بين تعالى حكمة ذلك بقوله:-(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ)أى الجماع

و بيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج و لم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذى يدفعه لها فإذا دخل بها و أفضى إليها و باشرها المباشرة التى كانت حراما قبل ذلك و التى لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض فإنه قد استوفى المعوض فثبت عليه العوض.

فكيف يستوفى المعوض ثم بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم و الجور

(وَأَخَذْنَ مِنكُم)كذلك أخذ الله على الأزواج(مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا)بالعقد و القيام بحقوقها من إمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان؟

*مسلم 1218 قال ﷺ:-فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ وَ اسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ
*البخارى 5312-عن سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ قَالَ:سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنْ حَدِيثِ المُتَلاَعِنَيْنِ فَقَالَ:-
قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُتَلاَعِنَيْنِ:-«حِسَابُكُمَا عَلَى اللَّهِ أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ لاَ سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا
(أى لم يبق لك سلطان على زوجتك التى لاعنتها و انحلت عقدة النكاح بينكما إلى الأبد)»قَالَ: مَالِي؟ قَالَ:-
«لاَ مَالَ لَكَ إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا
وَ إِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَذَاكَ أَبْعَدُ لَكَ»وَ قَالَ أَيُّوبُ سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ:-
رَجُلٌ لاَعَنَ امْرَأَتَهُ فَقَالَ: بِإِصْبَعَيْهِ-وَ فَرَّقَ سُفْيَانُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَ الوُسْطَى -
فَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَخَوَىْ بَنِي العَجْلاَنِ "وَ قَالَ:«اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ»ثَلاَثَ مَرَّاتٍ "
*الصحيح المسند من أسباب النزول:ابن جرير عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال :-
كان أهل الجاهلية يحرمون ما يُحَّرم إلا امرأة الأب و الجمع بين الأختين
قال فأنزل الله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾21

(وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ)لا تتزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم أى: الأب و إن علا.

(إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ)و مضى فى الجاهلية فلا مؤاخذة فيه.

(إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً)أى:–أمرا قبيحا يفحش و يعظم قبحه

(وَمَقۡتًا)بغضا من الله لكم و من الخلق بل يَمْقُت بسبب ذلك الابن أباه و الأب ابنه مع الأمر ببره بعد أن يتزوج بإمراته(وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا)الإسراء32

(وَسَآءَ سَبِيلًا)

بئس الطريق طريقا لمن سلكه لأن هذا من عوائد الجاهلية التى جاء الإسلام بالتنزه عنها و البراءة منها.
*فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل و يصير ماله فيئا لبيت المال
*أبي داود4457 عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْبَرَاءِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:-لَقِيتُ عَمِّي وَ مَعَهُ رَايَةٌ فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟
قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةَ أَبِيهِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ وَ آخُذَ مَالَهُ»22

(حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ)الأم يدخل فيها كل من لها عليك ولادة و إن بعدت

(وَبَنَاتُكُمۡ)و يدخل فى البنت كل من لك عليها ولادة

(وَأَخَوَٰتُكُمۡ)و الأخوات الشقيقات أو لأب أو لأم.

(وَعَمَّٰتُكُمۡ)و العمة:–كل أخت لأبيك أو لجدك و إن علا.

(وَخَٰلَٰتُكُمۡ)و الخالة:–كل أخت لأمك أو جدتك و إن علت وارثة أم لا.

(وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ)أى: و إن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء كما هو نص الآية الكريمة و ما عداهن فيدخل فى قوله:–

(وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ)النساء: ٢٤ و ذلك كبنت العمة و العم و بنت الخال و الخالة.

(وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ)

و أما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم و الأخت.

و فى ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها إنما هو لصاحب اللبن دل بتنبيهه على أن صاحب اللبن يكون أبا للمرتضع فإذا ثبتت الأبوة و الأمومة ثبت ما هو فرع عنهما كإخوتهما و أصولهم و فروعهم .

*و قال النبى ﷺ: « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »

فينتشر التحريم من جهة المرضعة و من له اللبن كما ينتشر فى الأقارب و فى الطفل المرتضع إلى ذريته فقط.

*لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات فى الحولين كما بينت السنة.

و أما المحرمات بالصهر فهن أربع:-

1-حلائل الآباء و إن علوا 2-و حلائل الأبناء و إن نزلوا وارثين أو محجوبين.

3-و أمهات الزوجة و إن علون((((فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد.)))

4- الربيبة و هى بنت زوجته و إن نزلت فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجته كما قال هنا

*البخارى5099 - عنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺأَخْبَرَتْهَا:-

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺكَانَ عِنْدَهَا وَ أَنَّهَا سَمِعَتْ صَوْتَ رَجُلٍ يَسْتَأْذِنُ فِي بَيْتِ حَفْصَةَ

قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ فِي بَيْتِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أُرَاهُ فُلَانًا» لِعَمِّ حَفْصَةَ مِنَ الرَّضَاعَةِ

قَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ كَانَ فُلَانٌ حَيًّا - لِعَمِّهَا مِنَ الرَّضَاعَةِ - دَخَلَ عَلَيَّ؟فَقَالَ:«نَعَمْ الرَّضَاعَةُ تُحَرِّمُ مَا تُحَرِّمُ الوِلَادَةُ»

* مسلم(1451) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ حَدَّثَتْ أَنَّ نَبِيَّ اللهِﷺ

قَالَ:«لَا تُحَرِّمُ الرَّضْعَةُ أَوِ الرَّضْعَتَانِ أَوِ الْمَصَّةُ أَوِ الْمَصَّتَانِ»و فى لفظ آخر (لَا تُحَرِّمُ الْإِمْلَاجَةُ وَ الْإِمْلَاجَتَانِ)

*مسلم(1452)عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:-"كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ:-عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَ هُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ "

معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدا حتى إنه ﷺتوفى و بعض الناس يقرأ خمس رضعات و يجعلها قرآنا متلوا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى و النسخ ثلاثة أنواع :-

أحدها ما نسخ حكمه وتلاوته كعشر رضعات و الثانى ما نسخت تلاوته دون حكمه كخمس رضعات و كالشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما

و الثالث ما نسخ حكمه و بقيت تلاوته و هذا هو الأكثر ومنه قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم)الآية]

*ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الرَّضَاعَةُ فِي سِنِّ الصِّغَرِ دُونَ الْحَوْلَيْنِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ.

*وَاخْتَلَفُوا: هَلْ يُحَرِّمُ لَبَنُ الفَحْلِ(و كتصوير للبن الفحل :رجل تزوج بامرأتين أرضعت إحداهما غلاما أجنبيا -ليس بابن الزوج-و أرضعت الاخرى جارية أجنبية فهل يحل لهذا الغلان أن يتزوج الجارية و الذي أراه منع الزواج في هذه الحالة)

كَمَا هُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَ غَيْرِهِمْ؟وَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ الرَّضَاعُ بِالْأُمِّ فَقَطْ وَ لَا يَنْتَشِرُ إِلَى نَاحِيَةِ الْأَبِ كَمَا هُوَ لِبَعْضِ السَّلَفِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ تَحْرِيرُ هَذَا كُلِّهِ فِي كِتَابِ "الْأَحْكَامُ الْكَبِيرُ "

(وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ)أَمَّا أُمُّ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَى ابْنَتِهَا سَوَاءٌ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ.

(وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ

(فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ)

*وَ أَمَّا الرَّبِيبَةُ وَهِىَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ فَلَا تَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَى أُمِّهَا حَتَّى يَدْخُلَ بِهَا فَإِنْ طَلَّقَ الْأُمَّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا جَازَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنْتَهَا وَ لِهَذَا قَالَ:-

{وَرَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

*و جمهور العلماء:علي أن الربيبة لا تَحْرُمُ بالعقد على الأم بخلاف الأم فانها تحرم بمجرد العقد

*وَ أَمَّا قَوْلُهُ:{وَرَبَائِبُكُمُ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ}فَجُمْهُورُ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ حَرَامٌ سَوَاءٌ كَانَتْ فِي حِجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ قَالُوا:-وَ هَذَا الْخِطَابُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:-

{وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}[النُّور: 33]

*وَقَدْ قِيلَ بِأَنَّهُ لَا تَحْرُمُ الرَّبِيبَةُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي حِجْرِ الرَّجُلِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَا تَحْرُمُ.

كما فى مصنف عبد الرزاق الصنعانى 10834 –

عَنِ مَالِكُ بْنُ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ النَّصْرِيُّ قَالَ: كَانَتْ عِنْدِي امْرَأَةٌ قَدْ وَلَدَتْ لِي فَتُوُفِّيَتْ فَوَجَدْتُ عَلَيْهَا فَلَقِيتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: «مَا لَكَ؟» فَقُلْتُ: تُوُفِّيَتِ الْمَرْأَةُ فَقَالَ:«أَلَهَا ابْنَةٌ؟» قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ:-«كَانَتْ فِي حِجْرِكَ؟» قُلْتُ: لَا هِىَ فِي الطَّائِفِ قَالَ:«فَانْكِحْهَا» قَالَ: قُلْتُ: فَأَيْنَ قَوْلُهُ {وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ} [النساء: 23]؟ قَالَ:«إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِكَ وَ إِنَّمَا ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ فِي حِجْرِكَ»

*و قد قال الجمهور: إن قوله:(ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم)قيد خرج مخرج الغالب لا مفهوم له

فإن الربيبة تحرم و لو لم تكن في حجره و لكن للتقييد بذلك فائدتان:–

إحداهما:فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة و أنها كان بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها.

و الثانية:–فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة و أنها بمنزلة من هى فى حجره من بناته و نحوهن. و الله أعلم.

(وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم)بيوتكم

(مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ)نكحتموهن

(وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ)أَيْ:و حُرمت عَلَيْكُمْ زَوْجَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَّدْتُمُوهُمْ مِنْ أَصْلَابِكُمْ يُحْتَرَزُ بِذَلِكَ عَنِ الْأَدْعِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَبَنَوْنهم فِي الْجَاهِلِيَّةِ

كَقوله{فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}الْآيَةَ [الْأَحْزَاب: 37] .

*وَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مُبْهَمَاتٌ:{وَحلائِلُ أَبْنَائِكُمْ} {أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ}

قُلْتُ:مَعْنَى مُبْهَمَاتٍ:أَىْ عَامَّةٍ فِي الْمَدْخُولِ بِهَا وَ غَيْرِ الْمَدْخُولِ فَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا وَ هَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ

(وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ)

و أما المحرمات بالجمع :–

فقد ذكر الله الجمع بين الأختين و حرمه و حرم النبى ﷺالجمع بين المرأة و عمتها أو خالتها

فكل امرأتين بينهما رحم محرم لو قدر إحداهما ذكرًا و الأخرى أنثى حرمت عليه فإنه يحرم الجمع بينهما و ذلك لما فى ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

*و كذا فى ملك اليمين

(إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ)الا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عنه و غفرناه

(إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا)

*هذه الآيات الكريمات مشتملات على:-

1-المحرمات بالنسب 2-و المحرمات بالرضاع 3-و المحرمات بالصهر

4-و المحرمات بالجمع 5-و على المحللات من النساء.

فأما المحرمات فى النسب:-

*البخارى5105-عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄:-«حَرُمَ مِنَ النَّسَبِ سَبْعٌ وَ مِنَ الصِّهْرِ(من المصاهرة و هم أهل بيت المرأة)سَبْعٌ»

ثُمَّ قَرَأَ: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ}[النساء: 23]23